

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique et Populaire

Ministère de l'Enseignement Supérieur

et de la Recherche Scientifique.

Université AKLI Mohand - Bouira-

Oulhadj

Tasdawit Akli Muhend Ulhag -Tubirett-



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أكلي محمد أولحاج

البويرة-

التخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

قسم: اللغة العربية وآدابها

## مذكرة ماستر

### العنوان

الهوية واللغة في الرواية الجزائرية الحديثة: قراءة في «ليس في رصيف

الأزهار من يجيب» لمالك حداد (ترجمة: ذوقان قرقوط)

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على شهادة الماستر

التخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

إشراف:

دكتور، عمر حاتم،

إعداد :

فارس لادق

### لجنة المناقشة:

|                |                 |                    |
|----------------|-----------------|--------------------|
| رئيسا          | جامعة البليدة 2 | 1- توفيق شابو      |
| المشرف، المقرر | جامعة البليدة 2 | 2- دكتور، عمر حاتم |
| مناقشا         | جامعة البليدة 2 | 3- أحمد زعزاع      |

السنة الجامعية: 2025 / 2026

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique et Populaire

Ministère de l'Enseignement Supérieur

et de la Recherche Scientifique.

Université AKLI Mohand Oulhadj - Bouira-

Tasdawit Akli Muhend Ulhag -Tubirett-

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أكلي محمد أولحاج

-البويرة-



التخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

قسم: اللغة العربية وآدابها

## مذكرة ماستر

### العنوان

الهوية واللغة في الرواية الجزائرية الحديثة: قراءة في «ليس في رصيف

الأزهار من يجيب» لمالك حداد (ترجمة: ذوقان قرقوط)

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على شهادة الماستر

التخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

إشراف:

دكتور، عمر حاتم،

إعداد :

فارس لادق

### لجنة المناقشة:

رئيسا

المشرف، المقرر

مناقشا

جامعة البليدة 2

جامعة البليدة 2

جامعة البليدة 2

1- توفيق شابو

2- دكتور، عمر حاتم

3- أحمد زعزاع

السنة الجامعية: 2025 / 2026

# شكر وتقدير

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

الحمد لله الذي وفقنا لإتمام هذا العمل المتواضع،  
والصلاة والسلام على المعلم الأول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

نتقدم بخالص الشكر وعظيم الامتنان إلى الأستاذ المشرف

الدكتور: عمر حاتم

الذي أمدنا بتوجيهاته القيّمة ونصائحه السديدة، ولم يبخل علينا بوقته  
وعلمه طوال مسيرة إعداد هذا البحث.

كما نتوجه بالشكر الجزيل إلى السادة أعضاء لجنة المناقشة الكرام  
على تفضلهم بقبول مناقشة هذا العمل وتقييمه.

ولا يفوتنا أن نشكر كلّ أساتذة قسم الأدب العربي بجامعة الغراء  
على ما بذلوه من جهد في تكويننا طوال مسيرتنا الأكاديمية.

وإلى كلّ من مدّ لنا يد العون من قريب أو بعيد،

جزاكم الله خير الجزاء

## إهداء

إلى من علمني أن الحياة كفاح وصمود،

وأن العلم نور لا يُطفأ...

أبي وأمي الكريمين

إلى رفقاء الدرب الذين شاركوني الجدّ والتعب،

إخوتي وأخواتي الأعزاء

إلى كل من حمل همّ القلم وآمن بقوة الكلمة،

زملائي وأصدقائي في مسيرة التعلم والمعرفة

إلى كلّ عاشق للأدب العربي وحارس لجمال اللغة الضاد...

## مقدمة

يُعدّ الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية من أكثر التجارب الأدبية تعقيداً وإثارة للجدل في تاريخ الأدب العربي الحديث والمعاصر، إذ يتقاطع فيه ما هو جمالي وما هو سياسي وما هو هوياتي في نسيج واحد لا يمكن فصل خيوطه. ففي قلب هذه التجربة يقف الكاتب الجزائري وحيداً في مواجهة أسئلة وجودية مضاعفة: من أنا؟ بأي لغة أكتب؟ وبأي لغة أحلم؟

تتطلق هذه الدراسة من إشكالية جوهرية تتمحور حول العلاقة بين اللغة والهوية في

الرواية الجزائرية الحديثة، عبر قراءة نقدية تحليلية في رواية "ليس في رصيف الأزهار من يجيب" للكاتب الجزائري الراحل مالك حداد. وهي رواية صدرت بالفرنسية عام 1961، لكنها تحمل في أعماقها روحاً عربية وجزائرية خالصة، تعبّر عن وجع المثقف المنفي الذي يكتب بلغة لا يشعر أنها لغته الحقيقية.

وقد اخترنا هذا النص تحديداً لأنه يُمثّل نموذجاً استثنائياً لما يمكن تسميته بـ"الكتابة على الحافة"، حافة بين لغتين وثقافتين وانتماءين؛ إذ يجد فيه القارئ روحاً جزائرية تتألم وتتساءل وتحلم بالحرية، لكنها تصوغ كل ذلك في قالب لغوي فرنسي، مما يجعل من الرواية وثيقة أدبية نادرة تختزل إشكالية الهوية في زمن الاستعمار.

تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن الإشكالية الرئيسية الآتية: كيف تتجلى العلاقة بين اللغة والهوية في رواية "ليس في رصيف الأزهار من يجيب" لمالك حداد؟ وتتفرع عن هذه الإشكالية جملة من الأسئلة الفرعية:

- كيف تُشكّل اللغة هوية الشخصية الروائية وتُعيد بناءها أو تفكيكها؟
- ما طبيعة الأزمة الهوياتية التي يعيشها البطل خالد بن طوبال في سياق المنفى والاستعمار؟
- كيف يُوظّف مالك حداد الصمت واللغة والمكان أدواتٍ للتعبير عن الهوية المتشظية؟
- ما العلاقة الجدلية بين اللغة الفرنسية باعتبارها لغة الكتابة والهوية الجزائرية باعتبارها مرجعية الانتماء؟

تكتسب هذه الدراسة أهميتها من عدة جوانب؛ أولها أن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية لا تحظى بالاهتمام النقدي الكافي من منظور الدراسات الهوياتية واللغوية المعمّقة. وثانيها أن موضوع اللغة والهوية يمثّل قضية راهنة لا تزال تُثير الجدل في الفضاء الثقافي والأدبي العربي والجزائري تحديداً. وثالثها أن مالك حداد يُعدّ من أبرز كتاب الكتابة الجزائرية بالفرنسية، وقد ترك وراءه تجربة أدبية فريدة تستوجب الدراسة والتأمل.

المنهج المتّبع

اعتمدت الدراسة المنهج التحليلي النصي القائم على قراءة النص الروائي قراءة دقيقة ومععمّقة، مستعيناً بآليات النقد الثقافي ونظرية الهوية في أبعادها الاجتماعية والفلسفية

واللسانية. كما تم استحضار مفاهيم نقدية ما بعد استعمارية لاستيعاب التعقيد الذي يميّز هذه

---

التجربة الأدبية، دون الإغراق في التنظير على حساب قراءة النص الأدبي نفسه.

اقتضت طبيعة الموضوع تقسيم البحث إلى فصلين متكاملين، أحدهما نظري والآخر تطبيقي، تسبقهما مقدمة عامة وتتلوهما خاتمة تضم أهم النتائج المتوصل إليها.

خُصّص الفصل الأول للإطار النظري لمفاهيم اللغة والهوية في الخطاب الروائي،

وقُسم إلى ثلاثة مباحث؛ تناول المبحث الأول مفهوم اللغة من خلال التعريف بها لغةً

واصطلاحاً، ثم عرض وظائفها المختلفة. أما المبحث الثاني فقد خُصّص لمفهوم الهوية من

خلال بيان معناها لغةً واصطلاحاً والتطرق إلى أهم أنواعها. في حين عالج المبحث الثالث

العلاقة بين اللغة والهوية، وذلك من خلال دراسة اللغة بوصفها مكوّناً أساسياً للهوية، ورصد

تجليات الهوية عبر اللغة، ثم إبراز طبيعة العلاقة بينهما في الخطاب الروائي.

أما الفصل الثاني فجاء بعنوان: "تجليات الهوية واللغة في رواية رصيف الأزهار لا

يجيب"، وهو فصل تطبيقي قُسم إلى مبحثين رئيسيين؛ تناول المبحث الأول تجليات اللغة في

الرواية من خلال دراسة اللغة وأشكال التعبير، والصمت والعجز اللغوي، ثم دلالة اللغة في

تشكيل الهوية. بينما خُصّص المبحث الثاني لدراسة تجليات الهوية في الرواية، من خلال

الوقوف عند أزمة الانتماء والاغتراب، وصورة الذات والآخر، ثم المكان والذاكرة

وعلاقتهاما بالهوية.

واختُتم البحث بخاتمة ضمت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، تلتها قائمة

المصادر والمراجع والملخص.



# الفصل الأول

الإطار النظري لمفهومي اللغة والهوية

تُعدّ العلاقة بين اللغة والهوية من أعمق الإشكاليات التي شغلت الفكر الإنساني عبر العصور، وقد تصاعد الاهتمام بها في العقود الأخيرة اهتمامًا بالغًا في ظل التحولات الثقافية والاجتماعية والسياسية المتسارعة التي يشهدها العالم، ولا سيما مع ظاهرة العولمة التي باتت تُهدد الخصوصيات الثقافية وتطرح تساؤلات جوهرية حول مستقبل الهويات الجماعية. إن اللغة ليست مجرد أداة للتواصل ونقل المعلومات، بل هي الوعاء الذي تنصبّ فيه ذاكرة الأمم وتراثها وقيمها، وهي المرآة التي تعكس تصوراتها عن الوجود والعالم. ومن هنا تنبثق الصلة العضوية التي تربط اللغة بالهوية ربطًا وثيقًا، إذ لا تستقيم هوية جماعية بغير لغة تحملها وتُعبّر عنها وتُعيد إنتاجها باستمرار.

وإذا كانت اللغة تُشكّل الهوية من الخارج بوصفها شرطًا للانتماء والتعارف بين أبناء الجماعة، فإنها تُشكّلها أيضًا من الداخل، لأنها تُنظّم طريقة التفكير وترسم حدود المتخيّل الجمعي، وتُحدّد ما يُقال وما يُسكّت عنه في ثقافة ما. وقد أدرك المفكرون اللسانيون والفلاسفة هذه الحقيقة منذ القِدَم، غير أن المعالجة العلمية المنهجية لم تتبلور إلا مع ظهور اللسانيات الحديثة في القرن العشرين.

وقد اكتسبت هذه العلاقة بين اللغة والهوية زخمًا أكاديميًا استثنائيًا في الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة، إذ أصبح النص الروائي مجالًا خصبًا للبحث في آليات توظيف اللغة لبناء الهوية وتمثيلها والتفاوض معها. فالرواية بوصفها جنسًا أدبيًا يستوعب الأصوات المتعددة ويعكس التعقيدات الاجتماعية والثقافية، تُوفّر فضاءً نصيًا رحبًا تتجلى فيه الهوية في أبعادها اللغوية والثقافية والتاريخية.

ومن هذا المنطلق، يسعى هذا الفصل الأول إلى وضع الأسس النظرية والمفاهيمية التي يركز عليها البحث بأسره، وذلك من خلال ثلاثة مباحث متكاملة: يتناول المبحث الأول مفهوم اللغة في مستوياته المختلفة، من المعجمية إلى الاصطلاحية إلى اللسانية الحديثة، ثم يُعرّج على الوظائف المتعددة التي تؤديها اللغة، وصولًا إلى رؤيتها بوصفها حاملةً للثقافة والانتماء.

أما المبحث الثاني فيتناول مفهوم الهوية تعريفًا وتحليلًا ومناقشةً، ساعيًا إلى رصد أنواعها المتباينة من الهوية الفردية إلى الجماعية إلى الوطنية والثقافية. في حين يُكرّس المبحث

الثالث للعلاقة البنيوية بين اللغة والهوية، مستجلبًا آليات هذه العلاقة في الخطاب بوجه عام

---

والخطاب الروائي بوجه خاص.

وتتجلى أهمية هذه الخلفية النظرية في كونها تزود الباحث بالأدوات المفاهيمية والمنهجية اللازمة لتحليل النصوص الروائية المدروسة تحليلًا دقيقًا يكشف عن الأبعاد الهوياتية المضمّنة في اللغة والأسلوب والبنية السردية. وبهذا يكون الفصل النظري جسرًا يصل بين الإطار المعرفي العام ومقتضيات التطبيق والتحليل في الفصول اللاحقة.

## الفصل الأول: اللغة والهوية:

### المبحث الأول: اللغة

#### المطلب الأول: مفهوم اللغة لغة واصطلاحاً

##### لغة:

من لغا في القول لغوا أي أخطأ. وقال باطلاً، ويقال لغا فلان لغوا أي أخطأ وقال باطلاً.

(كورت وأبو الهيجاء، 2015، ص. 130)

ويقال: ألغى القانون. ويقال: ألغى من العدد كذا: أسقطه والإلغاء في النحو: إبطال عمل العامل لفظاً ومحلاً في أفعال القلوب مثل ظن وأخواتها التي تتعدى إلى مفعولين. ولغا: ما لا يعتد به. (كورت وأبو الهيجاء، 2015، ص. 130)

ويقال تكلم باللغة ولغات ويقال سمعت لغاتهم: اختلاف كلامهم. واللغو: ما لا يعتد به من كلام وغيره ولا يدل على فائدة ولا نفع والكلام يبدر من اللسان ولا يراد معناه. (كورت وأبو الهيجاء، 2015، ص. 130)

وعند بعض العلماء اللغة مأخوذة من لغا فلان بمعنى تكلم ونطق، ففي لسان العرب «هي فعلة من لغوت أي تكلمت» (كورت وأبو الهيجاء، 2015، ص. 130)

وفي أساس البلاغة: لغوت بكذا: لفظت به وتكلمت، وإذا أردت أن تسمع من الأعراب فاستلغهم ... وتقول: اسمع لغوهم ولا تخف طغواهم ومنه اللغة، وتقول لغة العرب أفصح اللغات، وبلاغتها أتم البلاغات. (الكفوي، 1998، ص. 697)

ويرى فريق آخر أنها مأخوذة من قولهم: لغا فلان عن الصواب وعن الطريق: مال عنه ففي لسان العرب: لغا فلان عن الصواب وعن الطريق إذا مال عنه... واللغة أخذت من هذا، لأن هؤلاء تكلموا بكلام مالوا فيه عن لغة هؤلاء الآخرين. (الكفوي، 1998، ص. 697)

يقول الزمخشري في أساس البلاغة: ومن المجاز لغا عن الطريق وعن الصواب: مال عنه. وفي تعريف آخر قال الكفوي: اللغة أصلها "لغي" أو "لغو"، جمعها "لغي" و"لغات".

### اصطلاحاً:

اختلفت أنظار العلماء للغة وفقاً للمناهج التي يتبعونها، ففريق يعرفها على أساس عقلي أو نفسي فهي عندهم استعمال رموز صوتية منظمة للتعبير عن الأفكار ونقلها من شخص إلى آخر ومن هذا الفريق العالم الأمريكي سابير. (كورت وأبو الهيجاء، 2015، ص ص. 133-132)

ويلاحظ في هذا التعريف أنه أهمل استخدام اللغة في التعبير عن الشعور والعواطف، وقصرها على التعبير عن الأفكار فقط. (كورت وأبو الهيجاء، 2015، ص. (13-132))

تتنوع تعريفات اللغة وتتباين أحياناً تبعاً للتطور الفكري عبر التاريخ، واختلاف مواقف العلماء من اللغة وتقديرهم لوظيفتها للغة وتقديرهم لوظيفتها ومنه فقد اختلف العلماء قديماً وحديثاً في تحديد مفهوم دقيق للغة ويرجع سبب ذلك إلى ارتباط اللغة بكثير من العلوم. من أهم هذه التعريفات:

ابن جني: وعرفها اللغوي العبقي ابن جني بأنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم. (الزهراني، 2018، ص. 1)

ابن سنان: ويعرف ابن سنان الخفاجي اللغة بقوله هي ما يتواضع القوم عليه من الكلام. (كريم، 2018، ص. 51-52)

ابن خلدون: أعلم أن اللغة في المتعارف عليه عبارة المتكلم عن مقصودة، وتلك العبارة فعل الساني ناشئ عن القصد بإفادة الكلام فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتها. (كريم، 2018، ص. 51-52)

أما دوسوسير: عرف اللغة بأنها نظام من الإشارات التي تعبر عن أفكار. (الجرجاني،

1989/1978، ص. 23)

ومنه اللغة وسيلة اتصالية إنسانية اجتماعية كما أنها تختلف من مجتمع إلى آخر طبقاً لما  
اصطلح عليه أفراد ذلك المجتمع فاللغة نشاط إنساني عقلي إرادي يتحقق في حدود عادة  
كلامية السانوية تصبح ملكة لسانية بتكرار استعمالها. (الجرجاني، 1989/1978، ص. 23)

### المطلب الثاني: وظائف اللغة

إن اللغة لها أهمية كبيرة تتضح من خلال الوظائف التي تؤديها، وتتعدد وظائف اللغة، إلا أن  
وظيفتها الأساسية تتمثل في التعبير والتبليغ عن الأفكار والأحاسيس والمشاعر، وأيضاً تحقق  
التواصل والتفاهم بين المرسل والمستقبل، وتعتبر اللغة وسيلة التواصل بين البشر والتفاهم  
بينهم وأداة مهمّة أساسية للتعامل بينهم في المجالات المختلفة، وهناك وظائف عديدة أخرى  
للغة. (النسور، 2023). وهي كالآتي:

**الوظيفة التفاعلية:** تُعدّ الوظيفة التفاعلية من أكثر الوظائف حضوراً ووضوحاً، فحياة  
الإنسان تكتسب قيمتها من خلال التفاعل مع الآخرين، ولأن الإنسان كائن اجتماعي لا  
يستطيع الانعزال عن جماعته، فيستخدم الفرد اللغة، ويتبادلها في مجتمعه في مختلف  
المناسبات، وبالتالي تساعد اللغة الإنسان على التعرف على من حوله ومخاطبتهم والتفاعل  
والانفعال معهم وإيصال ما بداخله، ما يحقق في النهاية عنصر التشارك في الحوار.  
(النسور، 2023)

**الوظيفة الشخصية:** تتمثل الوظيفة الشخصية للغة في أن الفرد يتمكن من خلالها من  
التعبير عن آرائه ومشاعره واتجاهاته حول موضوعات متعددة، وهذا لأنه يستطيع إثبات  
هويته الخاصة وكيانه الشخصي وتقديم أفكاره للآخرين، فوظيفة اللغة هي نقل الخبرات  
الإنسانية والتعبير عن المشاعر والأفكار واكتساب المعارف؛ لذا فهي ضرورية لتقديم الثقافة  
والعلم، لأن الفكر لا يمكن أن يوجد من دون اللغة، والكلمة أداة للتفكير في المعنى. كما أن  
الإنسان يحتاج أحياناً للحديث مع نفسه بعيداً عن سياقه ومحيطه الاجتماعي، فيناقش نفسه

ويتحاور معها كأنها شخص آخر، ثم يوبخها أو يمدحها ويعيد الثقة لها، الفرد بحاجة إليه

ليحقق غرضًا شخصيًا له. (النسور، 2023)

**الوظيفة التاريخية للغة** تتمثل الوظيفة التاريخية للغة في الحفاظ على التراث الديني والأدبي والعلمي والثقافي، مع ضمان نقله من جيل لآخر ليصل إلى الأجيال كلها، وتتحقق الاستفادة منه، وتنقل الأفكار وتجارب الأمم الأخرى، إلى جانب إتاحة الاطلاع على آثارهم المختلفة ونمط تفكيرهم وعقليتهم بهدف الاستفادة منها. (النسور، 2023)

**الوظيفة الرمزية للغة** تتمثل الوظيفة الرمزية للغة في أنها تُستخدم للدلالة على الموجودات والأشياء والمفاهيم المادية أو الخبرات والمعاني والمفاهيم المجردة، وهذا يتم من خلال استخدام رموز معينة تشير إلى الموجودات أو الأشياء والمفاهيم المختلفة. (النسور، 2023)

**المبحث الثاني: الهوية**

## الهوية في اللغة

لفظ "هوية" مشتق من الضمير الغائب "هو" الذي تحوّل إلى اسم "هوية" وترادف كلمة هوية في اللغة العربية عدة ألفاظ نذكر منها: (المجلس الدولي للغة العربية، د.ت)

• الذاتية ليس بمعنى تدخل الذات في الموضوع في مقابل الموضوعية، بل تعني العناصر والمكونات الثابتة التي تحدد وجود الشيء، بهذه العناصر يوجد الشيء ومن غيرها ينعدم ويزول.

• حقيقة الشيء وجوهره.

• ماهية الشيء.

• الذات الفردية والذات الجماعية.

• تعريف الشيء وحدّه.

ويُعرّف "حس حنفي" الهوية انطلاقاً من اللفظة واشتقاقها اللغوي وما يعادلها في الحرف اللاتيني ويربطها بالآنا وبمعناها لدى الفلاسفة قائلًا: (المجلس الدولي للغة العربية، د.ت)

"الهوية من الضمير "هو" يتحول إلى اسم. ومعناه أن يكون الشخص هو اسم إشارة يحيل إلى الآخر، وليس إلى الآنا. وهو ما يعادل الحرف اللاتيني (Id). ومنها اشتق أيضاً لفظ (Identity). أما لفظ الآنية فهو يعادل الحرف اللاتيني (Ipse) ومنها اشتق (Ipseity). وبالتالي تمنع كل أنانية وخصوصية لأن الهوية تثبت الآخر قبل أن تثبت الآنا. لا تشتق الهوية من ضمير المتكلم المفرد "الآنا" إلا بمعنى الأنانية في مقابل الغيرية. أما لفظ "الآنية" فإنه مشتق من "إن" حرف توكيد ونصب. ومعناه أن يتأكد وجود الشيء وماهيته من خلال التعريف. (المجلس الدولي للغة العربية، د.ت)

ويمائل لفظ "الهوية" لفظ "الماهية" عند الفلاسفة أي جوهر الشيء وحقيقته. الهوية تماثل بين الآنا والهو في حين أن الماهية تماثل بين الشيء ونفسه. وهو أيضاً لفظ مشتق من أداة الاستفهام "ما"، وضمير الغائب المؤنث "هي". يستعمل في التعريف في حين أن لفظ

"الهوية" يُستعمل في الوجود. أما لفظ "جوهر" فهو صورة فنية من المعادن الثمينة ويعني

اللب والحقيقة أغلى ما في الشيء". (المجلس الدولي للغة العربية، د.ت)

## الهوية اصطلاحاً

لا يوجد تعريف متفق عليه لدى الفلاسفة والمفكرين وعلماء السياسة والاجتماع وغيرهم للهوية، بل توجد تعاريف مختلفة باختلاف المجالات المعرفية والإنسانية والاجتماعية، إذ يتغير معناها من مجال معرفي إلى آخر، من علم النفس إلى المنطق إلى علم الاجتماع إلى علم السياسة إلى غير ذلك من التخصصات الواسعة أو الضيقة التي تتناول موضوع الهوية بالبحث والدراسة. (المجلس الدولي للغة العربية، د.ت).

في المنطق الأرسطي الهوية أو الذاتية قانون يحكم الفكر والتفكير ويجنبه الوقوع في الخطأ والتناقض خلال عملياته الاستدلالية، مؤداه ومفاده أنّ الشيء هو هو ثابت لا يتبدل ولا يتحول من هو إلى ليس هو، فلا يكون الشيء هو وليس هو في الوقت نفسه، إمّا الشيء هو أو لا هو. (المجلس الدولي للغة العربية، د.ت).

في علم النفس ترتبط الهوية بالشخصية التي تتحدد بجانبين أساسيين، جانب يتميز بالكثرة والتغير ويخص مكونات الشخصية البيولوجية والنفسية والاجتماعية وكل ما هو قابل للزيادة والنقصان وقابل للتغير والاندثار، وجانب يتميز بالوحدة والثبات ويخص الأنا أو الذات الواحدة الثابتة التي تبقى هي هي لا تتغير ولا تزول، فالذات أو الأنا تمثل هوية الشخص وذاتيته. ففي الشخصية تجتمع الوحدة مع الكثرة والتغير مع الثبات من غير تناقض، بمعنى أنّ الأنا أو الذات الواحدة الثابتة تعيش التغير والكثرة في الأحوال والصفات. (المجلس الدولي للغة العربية، د.ت).

في الفلسفة تعني الهوية الماهية أي جوهر الشيء وحقيقته، ومنه جاء التعريف المنطقي في الفلسفة القديمة للحدود بالماهية لا بالعرض وبالحد التام لا بالحد الناقص وبالجنس القريب والفصل النوعي. (المجلس الدولي للغة العربية، د.ت)

ويختلف معنى الهوية من فلسفة إلى أخرى ومن فيلسوف إلى آخر ومن مرحلة تاريخية إلى أخرى، يختلف باختلاف الأنساق الفلسفية والفكرية والأيدولوجية ويكون تابعا للسياقات التاريخية التي عرفها الفكر عند الإنسان وعرفتها حياته. (المجلس الدولي للغة العربية، د.ت)

في علم الاجتماع ترتبط الهوية بالمجتمع وتحدد به وهي ظاهرة اجتماعية تحدد

ماهية المجتمع من حيث هو تركيبة بشرية مكوناتها كثيرة متداخلة ومتشابكة، تركيبة

متطورة باستمرار، فيها الثابت وفيها المتحول، وهوية المجتمع، وهوية الفرد جزء منه

تحددان بالعناصر الاجتماعية الثابتة في المجتمع والتي لا يوجد المجتمع من دونها، وهي

عناصر اجتماعية بحتة وسياسية واقتصادية وثقافية ودينية وتربوية وغيرها، فالجانب الثابت

الدائم الواحد الذي لا يتغير بتغير الأوضاع والظروف في الفرد وفي المجتمع وفي الطبيعة

ومن دونه لا يقوم مجتمع ما وينهار بانحيار هذا الجانب هو هوية هذا المجتمع، مثل الإسلام

في المجتمع الإسلامي، واللغة العربية في المجتمع العربي، واليهودية في المجتمع اليهودي

واللغة الهندية في المجتمع الهندي، ويختلف المقوم الذي يحدد هوية المجتمع من مجتمع إلى

آخر دينيا كان أو عرقيا أو طائفيا أو غيره. (المجلس الدولي للغة العربية، د.ت)

في السياسة والأيدولوجيا يختلف مفهوم الهوية من اتجاه إلى آخر وما أكثر

الاتجاهات السياسية والأيدولوجية، وبالتالي تتعدد وتنوع الهويات بحسب مقوماتها التي هي

مقومات الأمة، فتتعدد الهويات وتتباين بتعدد وتباين اللغات والثقافات والجغرافيا والتاريخ

والأديان والأعراق والأوطان ووحدة الماضي والمصير المشترك وغيره، قد تتحدد الهوية

بمقوم واحد وقد تتحدد بأكثر من مقوم، فالأمة الإسلامية هويتها تقوم على الدين الإسلامي

وداخل الأمة الإسلامية توجد هويات كثيرة مثل الهوية السنية والهوية الشيعية والهوية

الكردية والهوية التركمانية والهوية الأمازيغية وغيرها، ففي الغرب تتحدد الهوية بالوطن

واللغة فعرفت أوربا الهوية الفرنسية والهوية الإنجليزية والهوية الإسبانية والهوية الألمانية

وغيرها. (المجلس الدولي للغة العربية، د.ت)

يتضح مما سبق أن مفهوم الهوية اصطلاحاً لا يمكن حصره في جانب واحد. كما لاحظنا

تناولها الفلاسفة وفي العلوم الإنسانية والاجتماعية، لكن المتفق عليه أنّ الهوية تعبر عن

حقيقة الشيء وماهيته سواء على المستوى الفكري والمنطقي قانون الذاتية أو على المستوى

الفلسفي ماهية الشيء وحقيقته أو على المستوى الفردي والشخصي وحدة الأنا والشعور

وثباته أو على مستوى المجتمع الأنا الجمعي أو على مستوى الأيدولوجيات المقوم الذي

ترتكز عليه وتؤسس عليه هويتها مثل اللغة والعرق والدين والأرض وغيرها. (المجلس

الدولي للغة العربية، د.ت)

### الهوية الثقافية

إننا لا نستطيع ذكر مصطلح الثقافة دون ربطه بالهوية. فالفرنسي اليساري إدغار موران (1921-) يتفق مع جيل دولوز وبيير فليكس غتاري في كتابيهما، عن الهوية، الموسوم "الجدّمور" (Rhizome 1976)، على أن لكل فرد هوية واحدة ومتعددة. (الجوهري، 2023)، وبحسب دينس كوش، أن مفهومي "الثقافة" و"الهوية الثقافية" مترابطان إلى حد كبير. وذلك لأن الثقافة يمكنها أن تكون من دون وعي هوياتي، ويمكن أن تخضع إلى حد كبير لصيرورات لا واعية. أما الهوية فتحيل إلى معيار انتماء واع، مبني على تناقضات رمزية. ويضيف أن مسألة الهوية الثقافية تحيل منطقياً أولاً على مسألة أكثر اتساعاً وهي مسألة الهوية الاجتماعية. (الجوهري، 2023).

### ثانياً: الهوية اللغوية

تُشكّل اللغة الركيزة الأساس في بناء الهوية، وقد أكد المفكر عز الدين منصرة أن «الهوية اللغوية جزء لا يتجزأ من المنظومة الثقافية، وأن فقدان اللغة الأم يعني فقدان المرجعية الحضارية». (منصرة، 2004، ص. 89). والهوية اللغوية في الجزائر تُعدّ موضع إشكاليات بالغة التعقيد. إذ تجمع بين العربية الفصحى والعامية الجزائرية والأمازيغية والفرنسية، وهذا التعدد أفرز توترات هوياتية حادة تمثل الخلفية الحضارية لأدب مالك حداد. وتُعدّ الجزائر نموذجاً حياً لهذا الصراع اللغوي؛ إذ تجسّد واقعاً لغوياً حرجاً تتجاذبه أطراف ثلاثة: اللغة العربية الفصحى، والعامية، واللغة الفرنسية، وإن كان هذا الصراع من مخلفات الاستعمار الذي عمل على محاربة العربية وتهميشها وإحلال الفرنسية محلها. (مجلة أبحاث جامعة النجاح، د.ت)

### ثالثاً: الهوية الوطنية

وفي النقاشات السياسية، فإن الهوية غالبًا هي الهوية الوطنية، وقد تشير إلى روح الدولة

القومية وحضارتها. لكن هاينك ترى أن الهوية الوطنية ليست سوى واحدة من عدة هويات يمكن من خلالها تصور هويتنا (تماما كما ترتبط كلمة "قيمة" تلقائيا بالأخلاق، في حين أنها ليست سوى جانب واحد منها). وتضيف أن من المستحيل أن نعتبر قضية الهوية الوطنية يسارا أو يمينا؛ فالعامل المحدد هو السياق الذي يغذي القضية، وفوق كل شيء المجموعة المرجعية التي ستكون على المحك وتصبح هويتها في خطر. لكننا نلاحظ أيضا أن الدولة الحديثة تنزع إلى أحادية الهوية الثقافية. فنجدها تصدر بطاقات الهوية الوطنية تفرض هوية على حاملها؛ ففي تركيا مثلا، فإن البهائيين واليزيديين وبعض المجموعات المسيحية كالبروتستانت غير معترف بهم رسميا. وتصنف الدولة التركية الأفراد المنتمين لهذه المجموعات على أنهم مسلمون وتثبتها بذلك على بطاقات الهوية الوطنية. (الجوهري، 2023)

#### رابعاً: الهوية الفردية

وهي الهوية التي تُوضَّح ماهية الإنسان ومن هو، وتشمل عدّة عوامل؛ كالرقم الوطني، وبصمات الأصابع، وجواز السفر، وشهادة الميلاد، والتاريخ الشخصي، والأصدقاء، والعائلة، والعلاقات. (موضوع، 2021) والتي تبلورت وبرزت أهميتها عندما هجرنا القبائل وسكننا المدن، ثم ظهرت العولمة وانفتحت المجتمعات على بعضها. ويُدرك مفهوم "الهوية الفردية" عند السؤال: من أنا؟ مع التجرد من الألقاب الاجتماعية والانتماءات الجماعية والصفات الشكلية. بصيغة أخرى، الهوية الفردية هي جميع ما يؤمن به الفرد ويعتقده ويدافع عنه، وهي ما ترتاح إليه الروح وترنو إليه النفس من أهداف. وتفصح الهويات الفردية عن نفسها عندما تتخذ صراعات الفرد الفكرية عقله ميدانا لها، عند القرارات المصيرية أو عند التعثر بالمنظومات الفكرية المضادة له، المخالفة لمعتقداته، هنا تبرز معلنة عن نفسها. (الجزيرة نت، 2018) وكلما ابتعد الفرد عن قنبيته (أمانه الفكري)، اقترب من ذاته وفهم ماهيتها، وعلى الرغم من قدسية رحلته الداخلية هذه، إلا أنها شاقة مرهقة؛ فإعمال الفكر في المُسلّمات، واستمرار طرح التساؤلات يولد لديه بالاً مضطرباً وشعوراً قلقاً ويورثه رؤية مشوشة مؤقتة، ومن الممكن نبذه وانتقاده ورفض المجتمع له. وبخوضه في رحلته هذه، تبدأ الرؤية في الاتضاح ويصبح فكره فكراً شمولياً يسع الجميع، غير مقتصر على جماعته بل

بات واسع الصدر رحب الفكر لا يستتفره شعور الغضب الأعمى، بل يصبح أكثر انضباطا  
وتحكما في مشاعره، ومروضا لها. (الجزيرة نت، 2018)

---

### المبحث الثالث: العلاقة بين اللغة والهوية

المطلب الأول: اللغة باعتبارها مكوناً أساسياً للهوية

دور اللغة في تشكيل الانتماء

إن استعمال اللغة في المجتمع دعا إلى التواصل والتفاهم والانسجام، بين أبناء الأمة الواحدة،

وانصهارها كلياً في تجمع فكري واجتماعي موحد ولا شك أن الثقافة المشتركة المنتشرة في

أوساط الشعب تعد من أهم العوامل لبناء كيان وهوية الشعوب. فاللغة هي المرآة الصادقة

لذاكرة المجتمع والناقلة لها عبر الأجيال لضمان التواصل والتماسك الاجتماعي والثقافي

داخل المجتمع الواحد وذلك عبر المؤسسات الفاعلة فيه عموماً وبشكل خاص عبر

المؤسسات التربوية. (الجوزي، 2010، ص. 180)

### اللغة والمحافظة على الخصوصية الثقافية

اللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل هي حافظة للتراث الثقافي. إنها تخزن التاريخ،

العادات، المعتقدات، والمفاهيم التي يشترك فيها المجتمع، وتعمل على نقل هذه القيم عبر

الأجيال. (مجلة روح، د. ت)

ويرى اللغويون أن اللغة العربية أداة للحفاظ على القيم والتقاليد التي يعتز بها العالم العربي.

(مجلة روح، د. ت)

اللغة العربية ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل هي أداة أساسية للحفاظ على الهوية الثقافية

والتراث التاريخي للأمة العربية. من خلال اللغة، نستطيع أن نفهم تاريخنا ونحافظ على

ثقافتنا وأدبنا وفنوننا. كما أن اللغة العربية تمثل جسراً يربط بين الماضي والحاضر، ويتيح

للأجيال القادمة الحفاظ على التراث الثقافي الغني والمتنوع. (مجلة روح، د. ت)

### المطلب الثاني: تجليات الهوية من خلال اللغة

تعدّ اللغة من أهم الوسائل التي تسهم في تشكيل الهوية وتعزيزها، إذ لا يقتصر دورها على

كونها أداة للتواصل فقط، بل تتجاوز ذلك لتصبح وعاءاً للثقافة ووسيلة لنقل القيم والتقاليد بين

الأفراد. ومن هذا المنطلق، تتجلى الهوية من خلال اللغة في عدة مظاهر ترتبط بالتواصل

الثقافي، وتعزيز الانتماء، وبناء الشخصية الفردية، وهو ما يبرز العلاقة الوثيقة بين اللغة

والهوية في مختلف أبعادها الثقافية والاجتماعية. (الحربي، 2024)

### مظاهر تجلّي الهوية من خلال اللغة

#### 1. التواصل الثقافي وتبادل الأفكار

تتجلى الهوية من خلال اللغة في كونها وسيلة للتواصل الثقافي بين الأفراد، حيث تسمح

بتبادل المشاعر والأفكار، مما يعزز قيم الانتماء والولاء داخل المجتمع، ويساهم في

المحافظة على الإرث الثقافي ونقله عبر الأجيال. (الحربي، 2024)

## 2. تعزيز الانتماء وترسيخ الهوية

تظهر الهوية أيضاً من خلال اللغة في كونها تعزز الانتماء للوطن وترسخ الهوية الثقافية، خاصة من خلال تعلم اللغة الذي يساعد الأفراد على تنمية قدراتهم على الإبداع والتعبير عن مشاعرهم تجاه وطنهم، مما يقوي ارتباطهم بهويتهم الوطنية والثقافية. (الحربي، 2024)

## 3. التعرف على الثقافة والانخراط الاجتماعي

يتجلى دور اللغة في تعزيز الهوية من خلال تمكين الفرد من التعرف على الثقافة المرتبطة بها، وتسهيل التواصل مع المجتمع، والمشاركة في الحياة الاجتماعية، مما يعزز شعوره بالفخر والانتماء لبلده وثقافته. (الحربي، 2024)

## 4. التربية اللغوية والانفتاح الثقافي

كما تسهم اللغة في تعزيز الهوية عبر الأنشطة التعليمية مثل استخدام الوسائل التعليمية المرتبطة بالثقافة، وتشجيع النقاشات والأنشطة الثقافية، واحترام التنوع الثقافي، مما يعزز وعي المتعلم بهويته وانفتاحه على الثقافات الأخرى. (الحربي، 2024)

## 5. بناء الهوية الشخصية

تتجلى الهوية كذلك من خلال اللغة بوصفها أداة للتعبير عن الذات، حيث تمكن الفرد من التعبير عن أفكاره ومشاعره ومعتقداته، مما يساهم في تشكيل هويته الشخصية وبناء وعيه بذاته وبالعالم من حوله. (الحربي، 2024).

## المطلب الثالث: اللغة والهوية في الخطاب الروائي

يُعدّ موضوع اللغة والهوية في الخطاب الروائي من أبرز الإشكالات التي اهتمت بها الدراسات النقدية الحديثة، نظراً للعلاقة الوثيقة بين اللغة بوصفها أداة للتعبير السردية، والهوية بوصفها بناءً يتشكل داخل النص الروائي. فاللغة ليست مجرد وسيلة لنقل الأحداث، بل هي فضاء يُعاد من خلاله تشكيل الذات والعالم، وتُبنى عبره ملامح الهوية الفردية والجماعية. ومن هذا المنظور، يسعى الخطاب الروائي إلى مساءلة الهوية وإعادة إنتاجها من

خلال آليات السرد وتعدد الأصوات وتداخل الضمائر، مما يجعل العلاقة بين اللغة والهوية

---

علاقة تفاعلية ومعقدة داخل النص الأدبي. (الهوية في السرد الروائي، 2026)

وفي هذا السياق تتجلى اللغة الروائية بوصفها أداة لتمثيل الهوية حيث تُعدّ مسألة الهوية من القضايا المركزية التي شغلت الدراسات النقدية الحديثة، خاصة في ظل الاهتمام المتزايد بالرواية باعتبارها شكلاً معرفياً وإنسانياً قادراً على استيعاب تعقيدات التجربة البشرية. فالرواية لا تقتصر على نقل الواقع بشكل مباشر، بل تقدم رؤية عميقة للإنسان من خلال السرد الذي يعيد تشكيل العالم وفق منظور جمالي وفلسفي، يسمح بطرح قضايا الهوية بعيداً عن المقاربات السياسية أو الاقتصادية أو الأيديولوجية الضيقة. (الهوية في السرد الروائي، 2026)

وفي هذا السياق، تُفهم الهوية في الدراسات الاجتماعية على أنها مجموعة من السمات المشتركة التي تميز جماعة بشرية معينة، مثل التاريخ، الدين، اللغة، أو البيئة. غير أن التصور الفلسفي للهوية، خاصة عند بول ريكور، يتجاوز هذا التعريف الثابت نحو اعتبار الهوية مساراً تكوينياً يتشكل عبر الزمن من خلال السرد والتفاعل بين الأنا والآخر، حيث لا يمكن للذات أن تتحدد إلا داخل علاقة جدلية مع الغير. (الهوية في السرد الروائي، 2026)

ويؤكد ريكور أن الهوية لا تُدرك كمعطى جاهز، بل كعملية مستمرة تتأسس من خلال الحكي، إذ إن الإنسان حين يسرد حياته إنما يحاول فهم ذاته واكتشاف المناطق الغامضة فيها. ومن هنا، يصبح السرد الروائي أداة أساسية لبناء الهوية، لأنه يتيح توزيع الضمائر (أنا/هو/هي) داخل النص، مما يكشف عن تعدد الأصوات وتداخل الذات داخل التجربة الإنسانية. (الهوية في السرد الروائي، 2026)

كما أن محاولة الإنسان مواجهة ذاته بشكل مباشر قد تقوده إلى الغموض والاضطراب، لأن الأنا لا تتضح إلا عبر انعكاسها في الآخر، سواء في الواقع أو داخل النص الروائي. لذلك، فإن الهوية في بعدها السردية ليست ثابتة أو مكتملة، بل هي كيان متحول يتشكل باستمرار عبر التجربة والحكي والتفاعل مع الآخر. (الهوية في السرد الروائي، 2026)

وانطلاقاً من هذا التصور، يمكن قراءة الرواية باعتبارها فضاءً خصباً لطرح سؤال

الهوية، حيث يتجلى هذا السؤال من خلال بناء الشخصيات وتعدد وجهات النظر داخل

السرد. (الهوية في السرد الروائي، 2026)

عرضنا في هذا الفصل الأول الإطار المفاهيمي والنظري الذي يركز عليه بحثنا في دراسة العلاقة بين اللغة والهوية، وذلك من خلال ثلاثة مباحث متكاملة ومتنامية استهدفنا من خلالها الإمساك بالمفاهيم الجوهرية لهذه الدراسة وتحديد منطلقاتها النظرية بدقة ووضوح. وقد تكشف لنا في المبحث الأول المتعلق باللغة يمتد هذا المفهوم في عمقه التاريخي إلى جذور التراث المعجمي العربي الذي أدرك منذ القَدَم الطابع الاجتماعي الجماعي للغة. ثم جاءت اللسانيات الحديثة لتعمّق هذا الفهم وتطوّره، من الثنائيات السويسرية والمنهج التوليدي عند تشومسكي وصولاً إلى اللسانيات الاجتماعية، مؤكدةً أن اللغة ظاهرة بالغة التعقيد لا

يُختَزَل فهمها في بُعد واحد. وقد تبيّن أن وظائف اللغة تتجاوز التواصل المباشر لتشمل

التعبير عن الذات والنقل الحضاري والتأثير الرمزي على الانتماء، وهو ما يجعلها في صلب أي حديث عن الثقافة والهوية.

أما المبحث الثاني المتعلق بالهوية فقد أوضح أن هذا المفهوم في تحولاته الفكرية قد تجاوز التصورات الجوهرانية الجامدة نحو تصورات ديناميكية بنائية ترى في الهوية عملية مستمرة لا منتجاً جاهزاً ونهائياً. وهذا التصور الديناميكي هو ما يُمكننا من فهم كيف تتشكل الهويات وتتحوّل وتتكيف مع المتغيرات الاجتماعية والتاريخية. وقد تبيّن أن الهوية تتجلى في أنواع متعددة — فردية وجماعية ووطنية وثقافية — لكل منها طبيعة خاصة وإشكاليات متميزة، غير أن جميعها يلتقي عند مفترق واحد هو اللغة بوصفها العمود الفقري لكل هوية. وفي المبحث الثالث الجامع بين المفهومين، انكشف لنا أن العلاقة بين اللغة والهوية ليست علاقة وسيلة بغاية، بل هي علاقة أنطولوجية؛ إذ إن اللغة ليست أداة تُعبّر عن الهوية من خلالها عن نفسها فحسب، بل هي في الوقت ذاته أحد العوامل المُكوّنة لهذه الهوية وشرط من شروط وجودها. فاللغة تُشكّل الهوية وتُعيد إنتاجها، في كل لحظة تواصل، وكل خطاب لغوي هو في آنٍ واحد إنتاج للهوية وتفاوض معها.

وقد خلصنا إلى أن اللغة الروائية تُمثّل الحقل الأخصب لدراسة هذه العلاقة الجدلية، لما تنطوي عليه من طاقة تمثيلية استثنائية تجعلها أداة هوياتية مزدوجة الفعل:

تعكس الهوية القائمة وتُنتجها وتُعيد تشكيلها في آنٍ واحد. فالروائي لا يكتفي بترجمة هوية جاهزة إلى لغة، بل يُعيد عبر ممارسته الأسلوبية بناء الهوية ذاتها وإثراءها والتفاوض على حدودها. وعلى هذا الأساس النظري الراسخ تنطلق الدراسة نحو فصولها التطبيقية التي تُوظّف هذه المفاهيم في قراءة النصوص الروائية المختارة قراءةً دقيقةً كاشفةً.

# الفصل الثاني

تجليات الهوية واللغة في

رواية "ليس في رصيف الأزهار

من يجيب" لمالك حداد

يتناول هذا الفصل جوهر الإشكالية التي تطرحها رواية "ليس في رصيف الأزهار من يجيب" لمالك حداد، من خلال مقارنة العلاقة الجدلية بين الهوية واللغة في سياق المنفى والاستعمار. فإذا كانت الفصول السابقة قد أرست الإطار النظري المفاهيمي لمصطلحي الهوية واللغة وعلاقتهما في الفكر العربي الحديث، فإن هذا الفصل ينتقل إلى التطبيق والتحليل، متوقفاً عند التفاصيل التي رسمها حداد في روايته ليتبين من خلالها مأساة المثقف الجزائري في باريس ما بعد الحرب العالمية الثانية وأثناء حرب التحرير الجزائرية. تعتبر هذه الرواية، التي صدرت أصلاً بالفرنسية عام 1961، وثيقة أدبية استثنائية، ليس لأنها تروي حكاية شخصية فقط، بل لأنها تجسّد بألم وصدق نادرين أزمة كاتب جزائري يكتب بلغة المستعمر عن جراح وطنه، محاولاً بناء هويته المتشظية بين لغتين وثقافتين وانتماءين. قسم هذا الفصل إلى مبحثين رئيسيين: الأول يتناول تجليات الهوية في الرواية من خلال أزمة الانتماء والاغتراب، وصورة الذات والآخر، وعلاقة المكان والذاكرة بالهوية. أما المبحث الثاني فيتناول تجليات اللغة من خلال إشكال التعبير، والصمت والعجز اللغوي، ودلالة اللغة في تشكيل الهوية. حيث نهدف من خلال هذا الفصل إلى دراسة الكيفية التي وظف بها مالك حداد أدواته السردية ليقدم نقداً وجودياً معمقاً للواقع الاستعماري، متجاوزاً البعد السياسي المباشر إلى أبعاد إنسانية ونفسية ولغوية، مؤكداً أن معركة الهوية في زمن الاستعمار لا تُخاض فقط بالبنادق، بل تُخاض أيضاً وبشكل أكثر إيلاماً بالكلمات والصمت والذاكرة والمكان.

## المبحث الأول: تجليات اللغة من خلال إشكالية التعبير

ننتقل في هذا المبحث إلى معالجة القضية الأكثر إيلاماً وتركيباً في رواية مالك حداد، وهي قضية اللغة بوصفها ساحة المعركة الحقيقية للهوية في زمن الاستعمار. فإذا كان المبحث الأول قد كشف عن تمزق الذات الجزائرية في المنفى، فإن هذا المبحث يذهب إلى ما هو أعمق: كيف يمكن لهذه الذات الممزقة أن تعبر عن نفسها، وهي مضطرة إلى استعمال لغة المستعمر للتعبير عن جراح الاستعمار، هذه هي المفارقة المركزية التي تجعل من حداد واحداً من أكثر كتاب جيله تعقيداً وإشكالية. فرغم أن خالد بن طوبال يكتب بالفرنسية، وهي اللغة التي تعلمها في مدارس الاحتلال، إلا أن مشروعه الأدبي هو الدفاع عن القضية الجزائرية وتخليد نضال زوجته وريدة ورفاقها. هذا التناقض يضعه في موقف أشبه بالمشي على حبل مشدود: فكل جملة يكتبها تؤكد انتماءه إلى اللغة الفرنسية وبالتالي إلى ثقافة الآخر، بينما ينفي محتوى هذه الجملة ذلك الانتماء.

يتناول المطلب الأول "اللغة وإشكال التعبير" هذه المعضلة من جذورها، مركزاً على التناقض الذي يعيشه الكاتب المنفي الذي يشعر أنه "يغش" حين يكتب، لأنه "يجعل الأمر في حالة أحسن وأكثر جمالاً" مما هو عليه في الواقع. سنحلل كيف يعجز خالد عن التعبير بالفرنسية عن أعماق مشاعره تجاه وريدة، فيعتذر بأنه عربيّ، وأن الحياء يمنعه وكيف تتحول اللغة الفرنسية في لحظات الألم والموت إلى لغة عاجزة، فينهار خالد في هذيان ويتحدث عن نفسه بضمير المخاطب "إنك تهذي يا عزيزي خالد".

أما المطلب الثاني "الصمت والعجز اللغوي فيتحذ من هذا الفشل اللغوي نقطة انطلاق للتحليل، حيث يثبت أن الصمت في الرواية ليس مجرد غياب للكلام، بل هو حضور مكثف، لغة بديلة، وأحياناً اللغة الوحيدة الصادقة. سنتتبع أنماط الصمت المختلفة في الرواية: صمت الوجود في المشهد الأول حيث القطار يسير والمطر ينهمر وخالد لا ينام؛ صمت التواصل المفقود بين خالد وسيمون الذي يتحول إلى "مجاملة مصطنعة" تخفي الفراغ؛ صمت الحرب الذي يظهر من خلال غياب الأصوات ورحى تدور ليلاً؛ صمت البكاء الذي "يحجب الرؤية الواضحة" لكنه يبقى التعبير الوحيد الممكن؛ وأخيراً الصمت المقدس في الصحراء حيث "النجوم وحدها تذكر بوجود الله". هذا التنوع في أنماط الصمت يكشف عن رؤية حداد للغة كسلاح ذو حدين، حيث كلما زادت الحاجة إلى الكلام، زاد عجز الكلمات، واضطر الإنسان إلى الاحتفاء بالصمت.

أما المطلب الثالث "دلالة اللغة في تشكيل الهوية" فيقدم تصوراً تركيبياً نهائياً للعلاقة بين اللغة والهوية، ليخلص إلى نتيجة مفادها أن هوية خالد بن طوبال ليست عربية خالصة ولا فرنسية خالصة، بل هي هوية "معلقة" بين لغتين وثقافتين وانتماءين. وسنحلل كيف تعجز اللغة الفرنسية عن نطق الحاء العربية في كلمة "حرية" لتصبح "أوريّة" (تشويه لفظ "حرية") لا معنى لها، وكيف أن هذا المشهد البسيط مع الطفلة نيكول يختزل الإشكالية بأكملها: الهوية لا يمكن نقلها سليمة عبر لغة الآخر. كما سنتناول علاقة اللغة بالجسد (كيف يفكر خالد في أمه أثناء علاقته بمونيك)، وعلاقة اللغة بالجنس والأدب، وصولاً إلى استنتاج أن الكتابة بالفرنسية عن الجزائر في باريس ليست خيانة ولا استسلاماً، بل هي شكل من أشكال المقاومة الهجينة؛

المقاومة التي تعترف مسبقاً بهزيمتها الجزئية، لكنها تمارس الكتابة رغم ذلك، لأن الكتابة هي الملاذ الوحيد المتبقي.

### المطلب الأول: اللغة وإشكال التعبير

تشكل اللغة المعضلة الأساسية للبطل الكاتب المنفي، حيث يواجه إشكالاً وجودياً: كيف يعبر عن هويته الجزائرية وهو يستخدم لغة المستعمر؟ هذا السؤال ليس أكاديمياً، بل هو جوهر مأساة خالد بن طوبال. فهو يكتب بالفرنسية، لكنه يريد أن يكون كاتباً جزائرياً. وهذا التناقض يجعله يعيش في حالة من الانقسام الهوياتي لا حل لها.

### اللغة الفرنسية كلغة كتابة وتناقض الهوية

يقدم الراوي خالد بوصفه كاتباً يقول عن نفسه "إنني كاتب الشؤون العامة" (حداد، 1999، ص 64)، غير أن هذه الشؤون ليست سوى شؤون الجزائر المحتلة، وهو يكتب عنها بالفرنسية من باريس. هذا التناقض اللغوي يعكس تناقضاً هوياتياً: هل هو كاتب وطني يخدم قضية بلده؟ أم هو كاتب منفي فقد صلة اللغة بوطنه؟ أم هو كاتب خائن يستخدم لغة المستعمر؟ الرواية لا تجيب، لكنها تطرح السؤال بقوة. يصف الراوي الكتابة عند خالد بأنها "رواية الواقع" (حداد، 1999، ص 72)، لكن الواقع الذي يرويّه مشوه بالاستعمار، ومفلتر عبر لغة أجنبية. حتى عندما يكتب، يشعر أنه "يغش": في الروايات، «يجعل الأمر في حالة أفضل وأكثر جمالاً»، فهو إذن يغش فهو إذن يغش، وهذه طريقة للاعتذار آخر الأمر" (حداد، 1999، ص 42).

هذا الاعتراف بأنه "يغش" هو اعتراف بأن اللغة الفرنسية تخون الواقع الجزائري، لأنها تجبره على تجميل القبيح، على تقديم المأساة بشكل مقبول للقارئ الفرنسي. لكنه لا يستطيع التوقف عن الكتابة، لأن الكتابة هي ملاذه الوحيد: "لاذ ابن طوبال بروايته... اكتشف خالد لأول مرة، في قلمه وفي أوراقه رفاقاً، وإن كانوا مملين، لكنهم أوفياء" (حداد، 1999، ص 64).

الكتابة تمنحه رفقاء أوفياء (شخصياته)، وهذا يعوضه عن خيانة الأصدقاء الحقيقيين. لكن هؤلاء الرفاق موجودون بالفرنسية فقط، أي أن هويتهم أيضاً مشوّهة.

### عجز اللغة الفرنسية عن التعبير عن المشاعر

يتجلى الإشكال اللغوي بوضوح في المشاهد العاطفية. في لحظة حميمة مع مونيك، يفكر خالد في أمه (حداد، 1999، ص 24). هذا يعني أن اللغة الفرنسية تفشل في استحضار الحب والرغبة، فتستدعي اللغة العربية (الأم) لسد الفراغ. وفي مشهد آخر، تسأله مونيك عن سبب عدم إهدائه قصائده لزوجته، فيجيب: «أنا عربي يا مونيك والحياء يمنعني من ذلك» كلمة "حياء" هي مفهوم عربي/إسلامي لا ترجمة له في الفرنسية. خالد يستخدم اللغة الفرنسية لشرح مفهوماً عربياً، وهذه مهمة مستحيلة. النتيجة أن مونيك تفهمه خطأ وتصفه بأنه "متحفّظ" (حداد، 1999، ص 60)، أي بارد ومتحفّظ. الهوية العربية تُساء فهمها لأنها تُعبر عنها بلغة فرنسية. هذا هو الإشكال بعينه: اللغة تحجب الهوية بدل أن تكشفها.

## اللغة في مواجهة الموت والعنف - انهيار الهوية

في لحظة الذروة، عندما يتلقى خالد خبراً مروعاً (عبر الجريدة التي اشترتها له مونيكا)، تنهار اللغة ومعها تنهار الهوية. يصف الراوي رد فعله: «هذا غير صحيح! هذا مستحيل...» قد تعلق بخيط من الحقيقة يثبت لي أنني فهمت خطأ وأنني رأيت حلمًا وأنني لم أقرأ جيداً" هو يشك في قدرته على القراءة، أي يشك في اللغة نفسها، وفي قدرته على فهمها. هذا الشك في اللغة هو شك في الهوية: من أنا إن كنت لا أفهم ما أقرأ؟ ثم يهذي: "يا لها من مهنة هذه التي امتهناها، تستنفد القوى بخشونة... إنك تهذي يا عزيزي خالد، إنك تهذي " (حداد، 1999، ص 153). الهذيان هو لغة ما بعد انهيار اللغة، وهو انقسام الذات إلى متكلم ومُخاطَب. خالد يتحدث عن نفسه بضمير المخاطب ("يا عزيزي خالد")، أي أنه انقسم إلى نصفين: النصف الذي يتحدث بالفرنسية (الواعي، المثقف، الكاتب) والنصف الذي يُخاطَب (الجزائري المنكوب، الذي فقد لغته، الذي لا يفهم). هذا الانهيار اللغوي هو انهيار الهوية النهائي. اللغة التي كانت تبني الهوية أصبحت تدمرها.

## اللغة كملاذ وكمازق - الهوية المعلقة

خالد يكتب روايته داخل الرواية، وهذه الكتابة هي ملاذه. لكنها مأزق أيضاً. ، يكتب: "لست متأكداً من أنني أؤمن بالله. إنني ألوم نفسي على رجوعي إليه بدافع الحزن أكثر مني

بدافع الحب. لقد جبت أرجاء أحزاني... " هذه الجملة بالفرنسية تعبر عن شك وجودي، لكنها لا تستطيع أن تعبر عن الإيمان بالله بالمعنى الإسلامي، لأن الفرنسية تحمل مرجعية مسيحية. خالد يكتب عن الله بالفرنسية، فيحول الإله الإسلامي إلى إله مسيحي. هويته الدينية أيضاً تتشوه باللغة. ويكتب أيضاً: "الشيخوخة هي التمنى للآخرين" (حداد، 1999، ص 94). هذه العبارة القصيرة تحمل حكمة عربية في صياغة فرنسية. اللغة هنا تحاول أن تكون جسراً، لكنها تظل معلقة بين عالمين. وهكذا، هوية خالد تصبح معلقة بين لغتين، لا تنتمي إلى هذه ولا إلى تلك.

### المطلب الثاني: الصمت والعجز اللغوي

في مواجهة عجز اللغة الفرنسية عن التعبير عن عمق المعاناة الجزائرية، يتحول الصمت في رواية إلى لغة بديلة، بل إلى الهوية الوحيدة الصادقة المتبقية. الصمت ليس مجرد غياب للكلام، بل هو حضور مكثف للهوية حين تعجز الكلمات. هذا الصمت هو ما يجعل من خالد شخصية فريدة: إنه يتحدث حين يستطيع، ويصمت حين لا يستطيع، وفي صمته تتجلى هويته الحقيقية.

### الصمت الوجودي - صمت الهوية المهددة: يبدأ الصمت من المشهد الأول: "كان

القطار... ينتشي من سرعته... وكان المطر ينهمر فوق الزجاج الوافي. ولم يكن خالد قد أغمض عيناً" (حداد، 1999، ص 5). خالد لا ينام، لا يتكلم، فقط يفكر. هذا الصمت هو صمت من لا يملك اللغة ليقول ما يريد قوله. هو صمت المهاجر الذي يصل إلى بلد جديد

ولا يعرف كيف يبدأ الحديث. وهو أيضًا صمت من يخاف الكلام فيكشف عن هويته المهددة. هذا الصمت الوجودي يسبق أي كلمة، وهو أول تعبير عن الهوية قبل أن تتشكل باللغة.

**صمت التواصل المفقود - انهيار الهوية في العلاقة مع الآخر:** بين خالد وسيمون، تبدأ العلاقة بالكلام لكنها تنتهي بالصمت. يصف الراوي المجاملة المصطنعة التي تحل محل الحوار الحقيقي: "بهذا النوع من المجاملة المصطنعة التي تتم عن مبالغة في إظهار السجيا الحميدة حتى تنطوي على طيبة القلب ونقاء الضمير" هذه المجاملة هي كلام بلا معنى، هي صمت مقنّع. وعندما تتفاقم الأمور، يعلن الراوي: "كان رصيف الأزهار يزداد انحرافاً تدريجياً. فالذكريات تتراجع وتهرب ثم تختفي. ماتت فيه حرارة اللقاء، ولم يعد الحديث يدور حول الضاحية القديمة وشارع العرب" (حداد، 1999، ص 92). إن موت الحديث هو موت العلاقة، وموت العلاقة هو موت جزء من الهوية، لأن هوية خالد كانت مرتبطة بصداقته مع سيمون، بتلك الذاكرة المشتركة. عندما يصمتان، يموت ذلك الجزء من هويته.

**صمت الحرب والعنف - الهوية الصامتة في مواجهة القمع:** خالد يعيش في زمن الحرب، لكن الحرب في الرواية غالباً ما تكون صامتة. "ورحى الحرب تدور ليلاً" (حداد، 1999، ص 20)، لا أصوات للمدافع، فقط "رحى" تدور بصمت. وهذا الصمت يعكس عجز الهوية الجزائرية عن الصراخ، لأنها لا تملك اللغة التي تجعل صوتها مسموعاً. وفي مشهد آخر: "ومع ذلك فإن فلاناً قد اعتقل وفلاناً قد عذب وفلاناً قد اختفى" (حداد، 1999، ص 70). هذه الجملة الجافة تذكر التعذيب والاختفاء. الصمت هنا هو احترام للمعاناة، وهو أيضاً

اعتراف بأن اللغة عاجزة عن وصف الألم. الهوية الجزائرية، التي تخضع لهذا القمع، تعبر عن نفسها بالصمت لا بالكلام.

**الصمت كسلاح ضد الآخر -استعادة الهوية عبر الفعل لا القول:** في لحظة الغضب مع مونيك، عندما تقول له: "أرجوك لا تكن وقحاً فوق هذا كله" لا يرد خالد بالكلام، بل "نهض الكاتب" (حداد، 1999، ص 96). النهوض هو فعل صامت، لكنه يحمل كل معاني الرفض والكرامة. خالد هنا يستعيد جزءاً من كرامته (أي من هويته) عبر تجاوز اللغة إلى الجسد والفعل. إنه يقول: لن أجادل بالكلمات لأن كلماتك لا تستوعبني، سأنهض وسينتهي النقاش. هذا الصمت المسلح هو شكل من أشكال المقاومة الهوياتية.

**صمت العجز والبكاء -الهوية التي تبكي:** لحظات العجز القصوى تكون مصحوبة بالبكاء، والبكاء هو لغة ما قبل اللغة، وأكثر تعبيرات الهوية صدقاً. يقول خالد لمونيك: "لا داعي للبكاء يا مونيك، لا داعي للبكاء فهو يحجب الرؤية الواضحة" (حداد، 1999، ص 134). البكاء يحجب الرؤية، أي أنه يشوه الإدراك، لكنه مع ذلك هو الاستجابة الوحيدة الممكنة. مونيك تبكي، وخالد يطلب منها التوقف، وهذا يظهر أن البكاء ليس حلاً، لكنه أيضاً ليس باطلاً. إنه الصوت الوحيد الذي يخرج من هوية مصابة بصدمة لا تحتمل اللغة.

**الصمت المقدس -الهوية التي تتجاوز اللغة:** في مشهد الصحراء، يصف الراوي "الصمت مهيباً كالصحراء والنجوم وحدها تتذكر بوجود الله" (حداد، 1999، ص 142). هذا الصمت ليس صمت عجزٍ أو موتٍ، بل صمت امتلاء، صمت اتصال مع المطلق. هنا،

الهوية الجزائرية تتجاوز اللغة (الفرنسية والعربية معاً) إلى ما بعد اللغة، إلى الصمت حيث لا حاجة للترجمة ولا للوسائط. إنه صمت الصحراء التي تتحدث بلغة النجوم، وهي لغة يفهمها كل إنسان، بغض النظر عن لغته الأم. هذه هي الهوية في أسمى تجلياتها: هوية لا تحتاج إلى كلمات لتثبت وجودها.

**الصمت في عنوان الرواية - استحالة الإجابة:** يحمل عنوان الرواية نفسه صمتاً: "ليس في رصيف الأزهار من يجيب" (حداد، 1999، ص 1). هذا الصمت هو خلاصة أزمة الهوية واللغة. السائل (خالد، والجزائري، والقارئ) يسأل: من أنا؟ أين وطني؟ ما هي لغتي؟ لكن لا جواب. الأزهار لا تتكلم، الرصيف لا يتكلم، باريس لا تتكلم، قسنطينة لا تتكلم، حتى اللغة نفسها عاجزة عن الإجابة. فلم يبق إلا الصمت. وهذا الصمت ليس فراغاً، بل هو اعتراف بأن الهوية الحقيقية تكمن في السؤال نفسه، وليس في أي جواب. هكذا ينهي حداد روايته، ليس بحل، بل بتعميق السؤال، مؤكداً أن الإنسان في زمن المنفى والاستعمار لا يملك أن يقول "أنا"، بل يملك فقط أن يسأل "من أنا؟"، والأزهار لا تجيب.

### المطلب الثالث: دلالة اللغة في تشكيل الهوية

تقدم رواية مالك حداد رؤية معقدة ومأسوية للعلاقة بين اللغة والهوية: فاللغة ليست أداة محايدة تعبر عن هوية مسبقة، بل هي الميدان الذي تُبنى فيه الهوية وتُفكَّك في الوقت نفسه. خالد بن طوبال، الذي يكتب بالفرنسية عن كونه جزائرياً، يقع في تناقض وجودي لا حل له: كل كلمة يكتبها تؤكد انتماءه إلى اللغة الفرنسية، وبالتالي إلى ثقافة الآخر، بينما ينفي محتوى

كلماته هذا الانتماء. هذا هو مأزق الهوية ما بعد الاستعمارية، وهذا ما يجعل من رواية حداد وثيقة استثنائية.

**اللغة كأداة لتشكيل الهوية أم لتدميرها؟ يعلن خالد "أنا عربي" بالفرنسية (حداد، 1999، ص 60).** هذه الجملة القصيرة تختزل الإشكالية برمتها: إعلان الهوية بلغة غير الهوية. إنه يقول "أنا عربي" في لغة ليست عربية، فيجعل من هذا الإعلان نفيًا ضمنيًا. لأن "العربي" الحقيقي، في منطق الهويات، يجب أن يتحدث العربية. لكن خالد لا يستطيع أن يكتب بالعربية، لأنه نشأ في المدرسة الفرنسية. هويته العربية تُنفى باللغة نفسها التي يُعلنها بها. وفي موضع آخر، يعلن "إنني كاتب الشؤون العامة" (حداد، 1999، ص 64). هذه الهوية المهنية أيضاً مشكوك فيها: فهو كاتب "شؤون عامة" جزائرية، لكنه يكتب عنها في باريس، بلغة فرنسية. هل هو كاتب وطني؟ أم كاتب منفي؟ اللغة لا تحسم، بل تزيده غموضاً.

**اللغة والجسد - انقسام الهوية:** ترتبط اللغة بالجسد في الرواية بشكل وثيق. في مشهد الحميمية مع مونيك، يفكر خالد في أمه (حداد، 1999، ص 24). هذا يعني أن جسده مع مونيك ولغته الفرنسية، لكن روحه مع أمه ولغتها العربية. الانقسام الجسدي هو انقسام لغوي، والانقسام اللغوي هو انقسام هوياتي. إنه يعيش في جسده لحظة فرنسية، وفي عقله لحظة جزائرية. لا يمكن التوفيق بينهما، لأنهما يعتمدان على لغتين مختلفتين. وعندما تقول له مونيك "أنت متحفّظ" (حداد، 1999، ص 60)، هي تصف سلوكه بلغتها، لكنه في ثقافته يعتبر هذا السلوك "حياءً". كلمتان مختلفتان تصفان السلوك نفسه، لكنهما تنتميان إلى عالمين هوياتيين مختلفين. اللغة هنا ليست جسراً، بل جداراً.

اللغة والاسم-الهوية المسروقة: الدلالة الأكثر إيلاماً للغة في تشكيل الهوية تأتي في مشهد الدمية. يهدي خالد الطفلة نيكول عروسة جزائرية، ويسمّيها "حرية". لكن الطفلة لا تستطيع نطق "الحاء"، فتصبح الكلمة "أورية" (حداد، 1999، ص 53). هذا المشهد البسيط يختزل القضية: الهوية (حرية) لا يمكن نقلها سليمة عبر لغة الآخر. حرف "الحاء" هو صوت عربي لا وجود له في الفرنسية، فتُفقد الكلمة معناها. والطفلة نيكول، التي تمثل الجيل الفرنسي الجديد، غير قادرة على فهم الجوهر العربي للحرية، لأن لغتها لا تسمح بذلك. هنا، اللغة لا تشكل الهوية فحسب، بل تحدّد من يمكنه فهم هذه الهوية ومن لا يمكنه. خالد يريد أن يهدي "حرية" إلى طفلة فرنسية، لكنه يهديها "أورية" بالخطأ، أو يهديها شيئاً لا تعرف معناه. هذا عجز تراجيدي.

استحالة الهوية النقية: الخلاصة التي تصل إليها الرواية هي استحالة وجود هوية نقية وغير متناقضة تحت الاستعمار وبعده. اللغة هي الدليل. خالد لن يصبح "فرنسياً" أبداً، مهما أتقن الفرنسية، لأن هناك دائماً "حاء" لا يستطيع نطقها الفرنسيون، وهناك دائماً أم تتحدث العربية في رأسه، وهناك دائماً وريدة تنتظره في الجزائر. لكنه أيضاً لم يعد "عربياً" خالصاً، لأنه يفكر ويكتب بالفرنسية، ويحب امرأة فرنسية، ويعيش في باريس، ويكتب قصائده بالفرنسية ولا يهديها لزوجته لأنه "حياء" لكنه لا يستطيع تفسير هذا الحياء بالفرنسية. هويته معلقة بين لغتين، بين مكانين، بين امرأتين، بين ثقافتين. هذه الحالة المعلقة ليست اختياراً، بل هي نتيجة حتمية للاغتراب القسري والاستعمار.

اللغة كجرح مفتوح: لا تقدم الرواية حلاً، بل تقدم جرحاً مفتوحاً. فاللغة الفرنسية التي يكتب بها حداد (وروايته) هي لغة المستعمر، لكنها أيضاً اللغة الوحيدة التي تمكنه من مخاطبة العالم. إنه يكتب عن جراح الجزائر بلغة فرنسية، فيجعل القارئ الفرنسي (والعالمي) شاهداً على هذه الجراح. لكن في الوقت نفسه، يظل هذا العمل مشوهاً، لأنه يقدم المأساة بلغة الجلاذ. هذا الجرح المفتوح هو ما يعبر عنه عنوان الرواية: "ليس في رصيف الأزهار من يجيب". رصيف الأزهار هو باريس، وهو فرنسا وهو اللغة الفرنسية، وهو المكان الذي ينتظر فيه خالد الجواب، لكن الجواب لا يأتي. لا لأن الأزهار لا تتكلم، بل لأن لغة الأزهار (الفرنسية) لا تستطيع أن تجيب عن أسئلة جزائرية. وهكذا، تظل الهوية معلقة، واللغة عاجزة، والأسئلة مفتوحة، والرواية شهادة على هذا العجز وهذا الألم وهذا الصراع الذي لا نهاية له.

## المبحث الثاني: تجليات الهوية في الرواية

نتناول في هذا المبحث كيفية تجسيد مالك حداد (1999) لأزمة الهوية الجزائرية في سياق المنفى الفرنسي، من خلال استقراء العلاقات المعقدة التي أقامها بين البطل خالد بن طوبال والعالم من حوله. فالهوية، كما تقدمها الرواية، ليست كياناً ثابتاً أو جوهراً جامداً يمكن للإنسان أن يرثه أو يحافظ عليه بسهولة، بل هي بناء متحرك وهش يتعرض للاختبار والتهديد والتفكك في كل لحظة من لحظات الاغتراب. وقد اختار حداد بطله ليكون نموذجاً للمثقف الجزائري الذي نرح إلى باريس، عاصمة المستعمر، تاركاً وراءه وطنه وزوجته وريدة التي التحقت بالمقاومة، وأطفاله الذين لا يعرفون الحقيقة الكاملة عن اختفاء والديهم. من خلال هذه الشخصية، يقدم لنا حداد معملاً روائياً استثنائياً لدراسة تأثير المنفى على النفس البشرية، حيث تتشظى الذات بين رغبتها في البقاء والإبداع وبين شعورها الدائم بالذنب تجاه وطنها وشعبها.

يتوزع هذا المبحث على ثلاثة مطالب، يتناول كل واحد منها جانباً مختلفاً من جوانب أزمة الهوية. يتناول المطلب الأول "أزمة الانتماء والاغتراب" من خلال دراسة مظاهر التمزق النفسي والوجودي التي يعيشها خالد بن طوبال.

أما المطلب الثاني "صورة الذات والآخر" فيتجاوز التحليل النفسي الفردي إلى التحليل العلائقي، حيث يدرس الكيفية التي تظهر بها الذات الجزائرية في مرآة الآخر الفرنسي والعكس.

لن نقتصر في هذا المطلب على تحليل شخصية خالد وحدها، بل سنتطرق لدراسة العلاقات التي تربطه بسيمون كما سنتناول صوراً كاريكاتيرية لفرنسيين آخرين مثل "بيم-بو" الذي يظهر أن هناك من يعيشون خارج التاريخ ولا تمسهم جراح الاستعمار.

أما المطلب الثالث "المكان والذاكرة وعلاقتها بالهوية" فينظر إلى المكان ليس كخلفية جامدة، بل كعنصر فاعل ومؤثر في تشكيل الهوية وتقكيكها. سنقوم بتحليل أربعة أنماط مكانية رئيسية في الرواية: باريس بوصفها مكان المنفى القاتم، حيث "النور الذي ينطفئ" و"الليل الطويل وكآبة الفنادق الشاحبة"؛ وقسنطينة بوصفها مكان الذاكرة والجنة المفقودة، حيث الأشجار "تتبت بأعجاز فوق الصخر" وأضواء الجزائر البيضاء الدافقة؛ والصحراء بوصفها الفضاء الروحي المطلق، حيث "الصمت مجذب كالصحراء" والنجوم وحدها تذكر بوجود الله؛ وأخيراً "رصيف الأزهار" الذي يمنح الرواية عنوانها، بوصفه أيقونة الانتظار العقيم والصمت الذي لا يجيب. سنرى كيف أن الذاكرة في الرواية ليست قدرة إنسانية طبيعية، بل هي رهينة المكان: في باريس تتراجع الذاكرة وتهرب وتختفي، بينما في استحضار قسنطينة تظل مجزأة وشظوية.

### المطلب الأول: أزمة الانتماء والاغتراب

تتأسس أزمة الانتماء والاغتراب في رواية مالك حداد كبنية وجودية تحكم كل علاقات البطل خالد بن طوبال، غير أن هذه الأزمة لا تنفصل عن أزمة لغوية أعمق. فاغتراب خالد ليس اغتراباً مكانياً فقط، بل هو اغتراب عن لغته الأم واضطراره إلى استعمال لغة الآخر

للتعبير عن وجعه. يفتتح حداد (1999) روايته بصورة القطار الذي "ينتشي من سرعته ومن نفاد صبره وهو قادم من مرسيليا، مقبل على باريس". هذا القطار يعرف وجهته، بينما خالد لا يعرفها، لأن القطار لا يحتاج إلى أن يوجّه إلى نفسه أسئلة بينما خالد، لأنه كائن لغوي، مضطر إلى أن يسأل. اللغة هي التي تنتج الأسئلة الوجودية، والغريب هو من يسأل عن موقعه، بينما المطمئن في لغته ووطنه لا يحتاج إلى السؤال.

**يتساءل خالد بقلق:** "ترى هل تسلم سيمون، في الوقت المناسب، برقيته؟" البرقية هنا هي رسالة لغوية، وهي الوسيلة الوحيدة للتواصل مع الآخر، لكن خالد يشك في قدرتها على الوصول، أي يشك في قدرة اللغة على ربطه بالآخرين. هذا القلق يعبر عن الاغتراب بوصفه يتّمًا: "إن الإنسان ليخامره شعور باليتم عندما يهبط في مكان ما فلا يجد أحدًا" (حداد، 1999، ص 5). وهنا يكمن الربط بين اللغة والهوية: اليتيم اللغوي (فقدان اللغة الأم) يؤدي إلى اليتيم الوجودي (أن تفقد علاقات الانتماء). خالد يتيم لأنه فقد لغته الحقيقية، وأصبح يتحدث لغة لا ينتمي إليها ولا تنتمي إليه.

يتجاوز الاغتراب البعد المكاني إلى البعد الزمني، حيث يقدم حداد تشبيهاً استعارياً للزمن: "الزمن، هذه القطعة من الفلين التي تلقى في الجدول... الزمن هذا السافل، هذا النشال الذي ينسل بين الأصابع وبين الجفون"، الزمن هنا يوصف بصفات إنسانية (سافل، نشال)، وهذا التشخيص إنما يتم عبر اللغة. لكن الأعماق من ذلك أن خالد يعيش خارج لغته الزمنية: فهو لا يستطيع أن يسمي اللحظات الجميلة بلغته الأم، فيصبح الزمن مجرد "قطعة فلين"

عائمة، لا معنى لها. لأنه فقد اللغة التي كانت تعطي للزمن معنى (لغة الطفولة، لغة الأم، لغة قسنطينة)، أصبح الزمن في المنفى مجرد "نشال" يسرق ذكرياته.

يكشف الراوي عن العزلة الوجودية لخالد في جملة: "لم يكن يحب الحياة، ولكنه كان يتمناها للآخرين"، هذا التناقض يعكس انقساماً لغوياً: خالد لا يملك الكلمات لوصف حبه للحياة، لأنه لا يملك اللغة الحميمية التي تسمح بذلك. اللغة الفرنسية عنده هي لغة العمل والكتابة والنضال، لكنها ليست لغة الحب والحياة اليومية. فيتجه "حب الحياة" إلى الآخرين (إلى وريدة، إلى الأهل، إلى القضية)، ويبقى هو في فراغ عاطفي. ثم يلي ذلك تعداد رهيب لكل ما حرم منه: "أنه كان محروماً حتى من أبسط الانفعالات والمشاعر... من تحية يبتدر بها جاراً محترماً، ومن ظل في أفياء الأسياف الجزائرية. إنه محروم من بنت" (حداد، 1999، ص 34-35). هذا التعداد يصور الاغتراب باعتباره فقداناً للبساطة اليومية، وهذه البساطة مرتبطة باللغة اليومية، لغة التحية، لغة السوق، لغة العائلة. خالد فقد هذه اللغة، فأصبح محروماً من تلك الحياة البسيطة.

تصل أزمة الانتماء إلى ذروتها في العلاقة مع الآخر الفرنسي. فخالد يعيش في قلب المجتمع الفرنسي، لكنه يظل في حالة اغتراب دائم عنهم، والسبب لغوي في المقام الأول. في مشهد مهم بعد علاقته بمونيك، تقترح عذراً لتبرير تأخرها أمام زوجها، فيرد خالد بسخرية: "حسن! يمكن القول بأن عائلتكم متضامنة" (حداد، 1999، ص 24). هذه السخرية تعكس

إدراكه للفجوة اللغوية: هو لا ينتمي إلى هذه "العائلة" ولا يمتلك لغتها الحميمة. وفي موقف آخر، عندما تشتكي مونيكا من الجزائر وتقول "الجزائر"، لقد ضقت بها ذرعاً، يرد خالد بحدة: "هل لك أن تسكت، إنها بحاجة إليك" (حداد، 1999، ص 31). هنا، اللغة تصبح ساحة صراع على الهوية: مونيكا تتحدث عن الجزائر بلغة الاستخفاف، وخالد يرد بلغة الدفاع، لكنهما لا يلتقيان لأن كلاهما يستخدم اللغة الفرنسية من موقع مختلف.

أما مع سيمون، فالصداقة التي بدأت في قسنطينة (حيث اللغة العربية كانت حاضرة في الخلفية) تتآكل مع تقدم الحرب. يصف الراوي هذا التصدع: "كان رصيف الأزهار يزداد انحرافاً... ماتت فيه حرارة اللقاء ولم يعد الحديث يدور حول الضاحية القديمة وشارع العرب" (حداد، 1999، ص 92). موت الحديث هو موت اللغة، وموت اللغة يعني موت العلاقة. فالصداقة كانت قائمة على "الحديث"، وعندما أصبح الحديث مستحيلاً (لأن الحرب جعلت من المستحيل الحديث عن أي شيء)، انهارت الصداقة. يغادر خالد باريس دون أن يرى سيمون مرة أخرى، ودون أن يودع ماضيه (حداد، 1999، ص 103). هذا الصمت النهائي هو اعتراف بأن لا لغة تستطيع أن تصلح ما أفسده الاستعمار.

يصل حداد إلى تعريف المنفى: "المنفى، إنه عادة سيئة يجب أن نعتادها. والمنفى، مثلاً، هو شارع مدام والنور الذي ينطفئ، والليل الطويل وكآبة الفنادق الشاحبة" هذا التعريف لغوي بطبيعته، فهو يستخدم اللغة الشاعرية ليصوّر المنفى، لكن المفارقة أن هذه اللغة الجميلة تصف موت اللغة نفسها ("النور الذي ينطفئ" يشبه الكلمة التي تموت). وهكذا، يصبح

الاغتراب عادة سيئة، أي يصبح جزءاً من لغة الإنسان اليومية، فيفقد القدرة على التعبير عن الألم لأنه اعتاد عليه.

### المطلب الثاني: صورة الذات والآخر

تتشكل صورة الذات الجزائرية وصورة الآخر الفرنسي في رواية مالك حداد (1999) عبر علاقات معقدة، لكن العامل اللغوي هو الأكثر حسماً في تشكيل هذه الصور. فالذات لا تُعرف فقط بما تفعله، بل أيضاً باللغة التي تتحدث بها، والآخر لا يُدرك فقط من خلال أفعاله، بل من خلال الطريقة التي يستخدم بها اللغة. هذا الربط بين اللغة والهوية يجعل من كل حوار في الرواية ساحة معركة، ومن كل صمت اعترافاً بهزيمة أو انتصار.

**صورة الذات -خالد نموذجاً:** تظهر الذات الجزائرية من خلال خالد كذات هشة، وهذه الهشاشة مرتبطة بلغته المزدوجة. يصفه الراوي: "كان ولداً كبيراً بعض الشيء، هزياً بعض الشيء، عيناه لا تبصران أبعد من حدود إيمانه الطيب" (حداد، 1999، ص 10). هذه الصورة الجسدية تعكس الصورة اللغوية: "كبيراً بعض الشيء" لأنه يكتب بالفرنسية ويبدو مثقفاً، "هزياً بعض الشيء" لأن لغته الفرنسية ليست لغته الأم، فهو يستخدمها بعياء. "عيناه لا تبصران أبعد من حدود إيمانه الطيب" يعني أنه يؤمن بالقضية الجزائرية وبالكتابة، لكنه لا يرى النهاية، واللغة هنا حجاب لا نافذة: يكتب لكنه لا يصل، يعبر لكنه لا يفهم.

في وصف وصول خالد إلى باريس، يقول الراوي: "كان خالد في اليوم التالي نفسه لوصوله إلى باريس يعرف أن هناك رواية آخذة في نسج خيوطها، سيكون المنفى بطلها أكثر مما يكون الإطار" هذه الرواية هي التي يكتبها خالد، أي هو يصنع هويته عبر اللغة. المنفى هو البطل، أي أن خالد يحول تجربته إلى نص، يحول ألمه إلى كلمات، يحول اغترابه إلى أدب. لكن المفارقة أن هذه اللغة هي لغة المنفى نفسها (الفرنسية)، فهو يكتب عن المنفى باللغة التي سببت له المنفى. ثم يكشف عن تناقض داخلي: "فخالد بن طوبال يحتاج إلى إعادة بناء حياته لذلك اختار، وهو قد اختار اختياراً نهائياً. إلا أنه يعرف الإفصاح عن الفروق الدقيقة" (حداد، 1999، ص 12). "الإفصاح عن الفروق الدقيقة" هو قدرة لغوية دقيقة، يحتاج إلى لغة ماهرة ليشرح بها تعقيدات وضعه، لكن هذه المهارة تستخدم في خدمة لغة الآخر. هويته تنبني على هذه المهارة اللغوية، وفي الوقت نفسه تتهاوى بسببها.

**صورة الآخر الصديق -سيمون:** سيمون هو الآخر القريب، لكن العلاقة بينهما تتحدد عبر اللغة. كانا "يتخاطبان بصيغة الجمع"، أي يستخدمان لغة الاحترام والمحبة. هذه اللغة كانت ممكنة في قسنطينة، لأن الخلفية العربية كانت حاضرة، وكانت اللغة الفرنسية مجرد وسيلة بين صديقين. لكن في باريس، مع تصاعد الحرب، أصبحت اللغة الفرنسية تحمل أبعاداً سياسية. كل كلمة يقولها سيمون لخالد تذكره بأنه من المستعمر، وكل كلمة يقولها خالد لسيمون تذكره بأنه من المستعمر. اللغة التي جمعتهم في البداية أصبحت تفرقهما. صداقتهما ولدت "على استحياء كما يقف الدويري دون ضجة" وهذا الاستحياء هو في الأصل صفة لغوية

(الكلام الخفيض، الحذر اللغوي). وعندما يعلن أحدهما "صداقتنا صداقة تاريخية!" (حداد،

1999، ص 10)، يستخدم لغة الخطاب الكبير، لكنها سرعان ما تتبدد أمام وقائع التاريخ.

**صورة الآخر الحبيب -مونيك:** مونيك هي الآخر الأقرب، لكن الفجوة اللغوية بينهما

هي الأكثر إيلاماً. في المشاهد العاطفية، ينكشف العجز اللغوي: "لم يكن الليل قد هبط بعد.

الزوج يحدث جلبه وهو يولي وبات الحمام غير مغلق تماماً ومونيك في غرفتها، تخلع ثيابها.

بيد أنها تسمع نجاوى الابتذال، تلك الأمور اليومية التي أصبحت..." (حداد، 1999، ص

12). "نجاوى الابتذال" هي الكلمات الفارغة، اللغة السطحية التي لا تعبر عن شيء. خالد

ومونيك يستخدمان نفس اللغة (الفرنسية)، لكنهما لا يتواصلان، لأن كل كلمة تنتمي إلى عالم

مختلف. وفي المشهد الأكثر دلالة: "كانت تنثيه، فان خالداً كان يفكر بأمه" (حداد، 1999،

ص 24). هنا، لغة الجسد والرغبة تواجه لغة الذاكرة والأم، والأم تتحدث العربية. الانقطاع

بين اللغتين هو انقطاع بين الجسد والروح، بين الرغبة والهوية. خالد لا يستطيع أن يعيش

العلاقة كاملة لأنه يفكر بلغة أخرى.

تظهر مونيك أيضاً كصوت للاتهام: "إنني لأعجب يا خالد من أنك لم تهد قصيدة من

قصائدك أو كتاباً من كتبك إلى زوجتك" فيجيبها: "أنا عربي يا مونيك والحياء يمنعني من ذلك"

(حداد، 1999، ص 60). هنا، كلمة "حياء" لا تُترجم، فهي تحمل في اللغة العربية دلالات

لا وجود لها في الفرنسية. مونيك تسمع الكلمة لكنها لا تفهمها، وتصف خالد بأنه "متحفظ"

(أي متحفظ، بارد)، وهذا سوء الفهم نابع من اختلاف المرجعيات اللغوية والثقافية. اللغة لا

توصل المعنى، بل تحجبه. وفي لحظة غضب، تقول مونيك: "أرجوك لا تكن وقحاً فوق هذا

كله" فيرد خالد بـ "تهوض الكاتب" (حداد، 1999، ص 96). الفعل (التهوض) أبلغ من الكلمات، إنه يتجاوز اللغة إلى الجسد، لكنه أيضاً اعتراف بعجز اللغة عن الرد.

**صورة الآخر الكاريكاتيري - "بيم-بو":** يعرض حداد شخصياتٍ فرنسيةً مثل "بيم-بو" الذي "كان طوله متراً ونصف، يرتدي قبعة أميرال بحرية" (ص. 66). هذا الرجل القصير الذي يتباهى بمظهره، سُئل عن مشاركته في المقاومة، فأجاب باستغراب: "المقاومة؟" (حداد، 1999، ص 70). ثم يعلق الراوي: "وهكذا أثبت 'بيم-بو' باستغرابه وجود أناس في هذه الدنيا لا يلمسهم التاريخ، من قريب، ولا من بعيد" (حداد، 1999، ص 70). هذا الاستغراب هو فجوة لغوية بين الأجيال والأمم: بيم-بو لا يفهم معنى كلمة "مقاومة" لأنها ليست في قاموسه اللغوي. اللغة هنا تصبح مقياساً للوعي التاريخي: من يمتلك الكلمات يمتلك التاريخ.

**صورة الذات من خلال الآخر الجزائري - عبد الله:** في ذكريات قسنطينة، يظهر عبد الله، وهو يمثل الصوت الجزائري الآخر، الأكثر واقعية وسخرية. ينظر إلى الفرنسيين "يتمطون في جلساتهم المريحة"، فيعلق: "لا يعرفون أنهم يشربون مقبلاتهم فوق بركان" (حداد، 1999، ص 100). هذه استعارة لغوية قوية تحول المشهد العادي إلى مشهد ثوري. اللغة عند عبد الله هي أداة فضح، تكشف ما وراء. ويضيف: "عرفت حارساً في مقبرة أصبح بديناً لكثرة ما يأكل مما تسوقه العائلات ضحية لأرواح موتاها" (حداد، 1999، ص 100). هنا، اللغة تصنع صورة مقلوبة: الموت يغذي الحياة، والمقبرة تصبح مطعماً. إنها لغة السخرية السوداء، وهي شكل من أشكال المقاومة اللغوية.

صورة الآخر في الذاكرة - التمثال الفرنسي: في استرجاعات قسنطينة، يصور حداد (1999) تمثال "المورييسير" (جنرال فرنسي) الذي "يحتمي به كازينو البلدية" هذا التمثال صامت، لكنه يتحدث لغة القوة والغطرسة. صمته لغوي: إنه رمز لا يحتاج إلى كلمات، وجوده يكفي لترسيخ الهيمنة. خالد وعبد الله ينظران إليه، ويفهمان لغته الصامته. اللغة هنا ليست كلمات منطوقة، بل أشياء ودلالات.

تتكشف صورة الذات والآخر على أنها نتاج للصراع اللغوي أكثر مما هي نتاج للصراع السياسي. فبالد لا يستطيع أن يكون "نفسه" لأنه لا يملك اللغة التي تسمح له بذلك، والآخر لا يستطيع أن يفهمه لأن لغته عاجزة عن استيعاب تجربته. اللغة إذن هي الجدار الذي يفصل بين الذات والآخر، وهي الجسر الذي يحاولان عبوره دون جدوى. وهذا ما يجعل من رواية حداد وثيقة فريدة عن الاستعمار: ليس الاستعمار كاحتلال للأرض فقط، بل كاحتلال للغة، وبالتالي للهوية.

### المطلب الثالث: المكان والذاكرة وعلاقتهاما بالهوية

يمثل المكان في رواية مالك حداد أكثر من مجرد إطار جغرافي، فهو فضاء لغوي تترسب فيه الذاكرة وتتشكل الهوية. العلاقة بين المكان واللغة علاقة جدلية: المكان ينتج اللغة (حديث الناس، حكاياتهم، لهجاتهم)، واللغة تستحضر المكان (تصفه، تخلقه، تخونه). يعيش خالد بين مكانين، هما باريس وقسنطينة، ولغتين هما الفرنسية والعربية، ولكل مكان لغته الخاصة التي تُشكّل نمطاً معيناً من الذاكرة والهوية.

باريس -مكان المنفى واللغة الباردة: تبدأ الرواية بمشهد القطار والمطر "ينهمر فوق الزجاج الوافي" (حداد، 1999، ص 5). الزجاج هنا حاجز بصري، لكنه أيضاً حاجز لغوي: خالد يرى باريس من خلف زجاج لغته الفرنسية، يصفها لكنه لا يلمسها. تصف الرواية باريس بقولها: "المنفى، إنه عادة سيئة يجب أن نعتاها والمنفى، مثلاً، هو شارع مدام وتمثل عبارة "النور الذي ينطفئ" استعارةً ترمز إلى خفوت الكلمة وانطفاء القدرة على التواصل، والليل الطويل كآبة الفنادق الشاحبة" هذه اللغة الشعرية تصف فراغاً، تصف مكاناً فقد لغته الحقيقية. "شارع مدام" اسم فرنسي، "النور الذي ينطفئ" صورة للكلمة التي تموت، "الفنادق الشاحبة" هي أماكن بلا لغة حميمية، بلا ذاكرة. ثم يكمل: "والمنفى، هو، الحرب، حيث تسأم باريس هذا الفالس البنفسجي الزاهي، ورحى الحرب تدور ليلاً" (حداد، 1999، ص 20). "الفالس" هو موسيقى، والموسيقى شكل من أشكال اللغة، لكن باريس تسأمه، أي أن لغة الفرح ماتت، وحلت محلها لغة الحرب الصامتة ("رحى الحرب تدور").

لكن باريس ليست كلها سواداً؛ هناك محاولة لخلق فرحة لغوية مزيفة. خالد يحاول أن يقتنص "يوماً من أيام الخميس" ليكون "شخصاً جديداً، طري العود في فرحه... يقتنص حيزاً من الزمان طول يوم من أيام الخميس ليخلد من المأساة ويتحرر من شخصه ومن شخصيته"، هنا، تغيير اللغة يعني تغيير الهوية مؤقتاً. خالد يحاول أن يتحدث بلغة الفرح، أن يخرج من لغته المعتادة، لكن "الوسواس الدائم" يلاحقه: "إنني أتجول على حين يفعل الآخرون... على حين أن فلاناً قد أوقف وفلاناً عذب وفلاناً اختفى" (حداد، 1999، ص 111). اللغة الواقعية (أخبار الاعتقال والتعذيب) تقتحم لغة الفرح، فتنتهي المحاولة.

قسنطينة -مكان الذاكرة واللغة الدافئة: في تناقض صارخ مع باريس، تظهر قسنطينة في الذاكرة كفضاء لغوي مختلف. تتجلى أول صورة لقسنطينة سنة 1945 في قول الراوي: "كانت ليسيه قسنطينية، متأثرة، محمومة، واثقة من أهميتها. وكانت الأشجار التي تنبت بأعجاز فوق الصخر... قد مسها البرد كأولئك الطلاب الداخلين... الحنين إلى شواطئ الاستحمام وإلى الأضواء الدافئة، البيضاء في الجزائر" (حداد، 1999، ص 8). هنا، اللغة التي تصف قسنطينة هي لغة الحنين والشوق. "الأضواء الدافئة، البيضاء" توحى بالنقاء والدفء، وهو عكس لغة باريس الباردة. الطلاب الذين "لا تستطيع عنايتهم المفرطة بربطة العنق أن تكتم في نفوسهم الحنين"، أي أن لغة المدرسة الفرنسية (ربطة العنق رمزها) تقشل في قمع لغة القلب والحنين إلى الجزائر.

في استرجاعات أخرى، تظهر جملة الأم: "العصافير لا تُبنى أعشاشها في مهب الريح" (حداد، 1999، ص 99). هذه الجملة بالعربية في الأصل (حتى لو وردت في الترجمة)، وهي تحمل إيقاعاً وحكمة لا يمكن نقلها إلى الفرنسية. إنها لغة الأم، لغة البيت، لغة الأمان. خالد يتذكرها، أي أنه يحتفظ بهذه اللغة في داخله، لكنه لا يستطيع استخدامها في حياته اليومية في باريس. هذه الجملة تصبح تعويذة لغوية تذكره بأنه لا يمكن بناء هوية (عش) في مكان غير مستقر (ريح المنفى).

رصيف الأزهار: يجمع العنوان بين رصيف وأزهار و"لا يجيب". هذا الصمت هو جوهر الإشكالية اللغوية في الرواية. الرصيف مكان، والأزهار جمادات، لكنهما "لا يجيبان" لأنهما يفتقدان القدرة على الكلام. الإنسان الذي يسألهما (خالد) يتوقع جواباً، لكن لا جواب. هذا يعني

أن اللغة التي يبحث عنها غير موجودة، أو أن السؤال نفسه خطأ. في وصف رصيف الأزهار: "الأحد. السماء ثقيلة... وتبدو كنيسة نوتردام منهكة واللبالب يتدلى عليها تدلي اليأس... ونهر السين كأنه حنش كبير" هذه الصور اللغوية تصف مكاناً منهكاً، يائساً، كالثعبان. ثم: "ويشتري خالد باقة من الورد وما كان له أن يشتري ورداً ولا" (حداد، 1999، ص 122). هذا النفي ("وما كان له") يدل على أن اللغة (التي ترمز إليها الأزهار كجمال وتواصل) أصبحت مستحيلة. شراء الورد هو محاولة لاستعادة لغة الجمال، لكنها محاولة فاشلة.

**الصحراء - المكان المطلق والصمت المقدس:** يتذكر خالد الصحراء: "في قلب 'العرق الشرقي العظيم'، في وسط الكثبان الرملية المتحركة... الصمت مجذب كالصحراء والنجوم وحدها تذكر بوجود الله إذ أن 'العرق العظيم' يستحيل أن تكون" (حداد، 1999، ص 142). الصحراء هنا هي مكان ما وراء اللغة، حيث الصمت هو اللغة الوحيدة. "الصمت مُجذب" يعني أن هذا الصمت يتحدث، أن له قوة جذب. والنجوم "تذكر بوجود الله"، أي أنها تتحدث بلغة الإشارة والرمز. خالد يتذكر هذا المكان، أي أنه يحن إلى لغة الصمت المطلق، إلى ما قبل اللغة وما بعدها، حيث لا حاجة للفرنسية ولا للعربية، لأن الجميع يفهم لغة الصحراء والنجوم. لكنه لا يستطيع العودة إليها إلا في الذاكرة.

**العلاقة الجدلية بين المكان واللغة والذاكرة:** في الرواية، الذاكرة ليست مستقلة عن اللغة. في باريس، تتراجع الذاكرة لأن اللغة الفرنسية لا تستطيع استحضارها: "الذكريات تتراجع وتهرب ثم تختفي" (حداد، 1999، ص 92). اللغة الفرنسية هي لغة الحاضر، لكنها ليست لغة الماضي، فتفشل في الإمساك بالذكريات. أما في قسنطينة، فكانت اللغة هي الوعاء الطبيعي

للذاكرة. وعندما يستحضر خالد الماضي، يقول: "لقد مضى على ذلك ما يقرب من خمس عشرة سنة!" (حداد، 1999، ص 48). لم تجعل هذه السنوات الذكريات أكثر وضوحاً، بل زادت بها تأناً، بل جعلتها باهتة، لأن المسافة الزمنية تفصلها أيضاً عن لغتها الأصلية. وهكذا، المكان واللغة والذاكرة والهوية يشكلون نظاماً مترابطاً: تغير المكان (من قسنطينة إلى باريس) يستلزم تغيير اللغة (من العربية إلى الفرنسية)، وهذا التغيير اللغوي يُضعف الذاكرة. خالد عالق في هذه الحلقة المفرغة، وهو ما يعبر عنه عنوان الرواية: "ليس في رصيف الأزهار من يجيب". إذ لا توجد هناك لغة قادرة على الإجابة، ولا هوية قادرة على الرد على السؤال.

رواية "ليس في رصيف الأزهار من يجيب" لمالك حداد تمثل واحداً من النصوص الأدبية التي تناولت إشكالية الهوية واللغة في السياق ما بعد الاستعماري، حيث نجح الكاتب في تحويل تجربته الشخصية كمفني جزائري في باريس إلى نموذج إنساني عالمي يعكس مأساة المثقف الممزق بين ثقافتين. تبين من خلال دراسة تجليات الهوية في الرواية أن أزمة الانتماء لدى البطل خالد بن طوبال تجاوزت البعد المكاني البسيط لتتحول إلى اغتراب وجودي كامل، يتمثل في عجزه عن ممارسة الحياة الطبيعية وفي شعوره الدائم باليتم وفي علاقته المتوترة مع الزمن الذي أصبح "نشالاً" يسرق ذكرياته وأحاسيسه.

كما أظهرت صورة الذات والآخر في الرواية تعقيداً كبيراً، حيث لم يقع حداد في فخ الثنائية المبسطة بين الضحية والجلاد، بل قدم صورة مركبة للآخر الفرنسي (الصديق سيمون، الحبيبة مونيكا، الكاريكاتير بيم-بو) وللذات الجزائرية (خالد، عبد الله)، مبرزاً كيف أن الاستعمار يفسد العلاقات الإنسانية حتى في أكثر لحظاتها حميمة.

وكشفت علاقة المكان والذاكرة بالهوية عن أن باريس (مكان المنفى) وقسنطينة (مكان الأصل) والصحراء (مكان التأمل المطلق) ورصيف الأزهار (مكان الانتظار العقيم) ليست مجرد خلفيات جغرافية، بل هي كيانات فاعلة تشكل الذاكرة وتفككها، وتبني الهوية وتهدمها، مُجسِّدةً بذلك الصراع الأبدي بين الانتماء والاغتراب.

أما فيما يتعلق بتجليات اللغة، فقد وجدنا أن اللغة ليست مجرد أداة تواصل بل هي ميدان المعركة الأساسي لهوية البطل. إذ يعاني خالد من إشكالية تعبيرية حادة، فهو يكتب بالفرنسية (لغة المستعمر) عن وطنه الجزائري، مما يضعه في موقف متناقض حيث يشعر أنه "يغش" ويحمل الحقيقة بدلاً من أن يعبر عنها بصدق. وبلغ العجز اللغوي ذروته في الرواية، حيث تحول الصمت إلى اللغة الوحيدة الصادقة المتبقية: صمت التواصل المفقود بين الأصدقاء، صمت الحرب والعنف، صمت البكاء الذي يحجب الرؤية، وحتى الصمت المقدس في الصحراء.

كشفت دلالة اللغة في تشكيل الهوية أن خالد يعيش حالة من الاستحالة الهوياتية، فهو لم يعد "عربياً" خالصاً لأنه يفكر ويكتب بالفرنسية ويعيش في باريس، ولن يصبح "فرنسياً" أبداً لأنه يحمل في داخله أمّا تتحدث العربية وقضية وطنية ونضالاً من أجل الحرية. هذا التعليق الهوياتي ليس خياراً، بل هي نتيجة حتمية للاغتراب القسري، والرواية من خلال لغتها الفرنسية التي تحاول التعبير عن هذا التمزق تقدم نموذجاً فريداً للأدب الهجين، مؤكدة أن الجرح الاستعماري يبقى مفتوحاً، وأن معركة الهوية واللغة هي معركة وجودية لا نهاية لها، تظل فيها

الأسئلة مفتوحة والإجابات غائبة، كما يوحي عنوان الرواية: "ليس في رصيف الأزهار من يجيب".

خلصت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج والاستنتاجات التي أضاءت أوجهاً متعددة من العلاقة بين اللغة والهوية في رواية "ليس في رصيف الأزهار من يجيب" لمالك حداد، وهي نتائج تتجاوز النص الروائي الواحد لتلمس قضايا أعمق في الأدب الجزائري والعربي بأسره.

### على صعيد الإطار النظري

وقد تبين لنا في الفصل النظري أن اللغة ليست مجرد أداة تواصل أو نظام للإشارات، بل هي الوعاء الذي تتشكل فيه الهوية وتُعاد صياغتها في مختلف ممارسات التواصل. فالعلاقة بين اللغة والهوية علاقة أنطولوجية جوهرية لا يمكن اختزالها في منظور أداتي ضيق. وقد تجلّى ذلك من خلال استعراض تعريفات اللغة عند ابن جني وابن خلدون وسوسير وغيرهم، وصولاً إلى الدراسات اللسانية الاجتماعية الحديثة التي أكدت البُعد الاجتماعي والثقافي للغة.

كما تبين أن الهوية في تصوراتها المعاصرة تجاوزت المقاربات الجوهرانية الثابتة نحو تصورات بنائية ديناميكية ترى فيها عملية مستمرة لا منتجاً جاهزاً. وهذا التصور الديناميكي يُمكن من فهم كيفية تشكّل الهويات وتحولها في سياقات الاستعمار والمنفى والتعدد اللغوي.

### على صعيد تجليات الهوية في الرواية

كشف التحليل التطبيقي للرواية أن أزمة الانتماء لدى البطل خالد بن طوبال تتجاوز البُعد المكاني البسيط لتصبح اغتراباً وجودياً شاملاً يمسّ علاقته بالزمن واللغة والآخر والمكان في آنٍ واحد. فهو لا يُعاني من كونه بعيداً عن وطنه جغرافياً فحسب، بل من كونه مقطوع الصلة باللغة التي يُفكّر بها ويُحلم بها ويعيش بها.

وأظهرت صورة الذات والآخر في الرواية تعقيداً بالغاً؛ إذ لم يقع حداد في فخ

---

الثنائية المبسطة بين الضحية والجلاّد، بل قدّم صوراً مركّبة للآخر الفرنسي وللذات

الجزائرية، مُبرزاً كيف أن الاستعمار يُفسد العلاقات الإنسانية حتى في أكثر لحظاتها حميمية.

والدليل على ذلك علاقة خالد بسيمون التي بدأت بلغة المحبة والمجاملة الصادقة ثم تآكلت

بفعل الحرب، وعلاقته بمونيك التي انكشف فيها العجز اللغوي في أشد صورهِ إيلاّماً.

أما المكان فقد حضر في الرواية حضوراً فاعلاً مؤثراً في تشكيل الهوية

وتفكيكها؛ فباريس مكان المنفى البارد الذي "تنطفئ فيه الأنوار" وتتراجع فيه الذاكرة،

وقسنطينة مكان الأصل الدافئ المفقود الذي لا يُمكن استعادته إلا في أحلام الذاكرة،

والصحراء فضاء روحي مطلق تنتفي فيه الحاجة إلى اللغة، ورصيف الأزهار أيقونة

الصمت الذي لا يُجيب عن أسئلة الهوية المؤلمة.

### على صعيد تجليات اللغة في الرواية

خلصنا إلى أن اللغة في الرواية ليست مجرد أداة للسرد، بل هي الميدان الحقيقي للمعركة

الهوياتية. فخالد بن طوبال يكتب بالفرنسية عن جراح الجزائر ووجع المنفى، وكل كلمة

يكتبها تُؤكد انتماءه إلى ثقافة اللغة التي يستخدمها، بينما يعمل المحتوى على نفي هذا

الانتماء. هذا هو المأزق الوجودي الكامل: اللغة تبني الهوية وتهدمها في الآن ذاته.

وتبيّن أن الصمت في الرواية ليس مجرد غياب الكلام، بل هو لغة بديلة وأحياناً اللغة

الوحيدة الصادقة. فصمت خالد في القطار، وصمت تواصله المفقود مع سيمون،

وصمت البكاء الذي "يحجب الرؤية الواضحة"، وصمت الصحراء المقدس، كلها أنماط

تكشف أن اللغة الفرنسية كانت عاجزة عن استيعاب عمق المعاناة، فكان الصمت هو الملجأ

الأخير.

والمشهد الأكثر دلالة في هذا السياق هو مشهد الطفلة نيكول التي لا تستطيع نطق

حرف "الحاء" العربي في كلمة "حرية"، فتُصبح "أورية" بلا معنى. هذا المشهد البسيط

يختزل الإشكالية بأسرها: الهوية لا يمكن نقلها سليمة عبر لغة الآخر.

## الخاتمة

انتهت الدراسة إلى أن هوية خالد بن طوبال ليست عربية خالصة ولا فرنسية خالصة، بل هي هوية "معلقة" بين لغتين وثقافتين وانتمائين، وهذه الحالة المعلقة ليست اختياراً بل هي نتيجة حتمية للاستعمار الذي سرق من الجزائريين لغتهم الأصلية وأبدلها بلغة المحتل. ومن هنا تتجلى قيمة توظيف مالك حداد لهذا الإشكال الوجودي توظيفاً أدبياً يتسم بقدر كبير من الصدق والعمق.

وتؤكد الرواية في نهاية المطاف أن الكتابة بالفرنسية عن الجزائر في باريس ليست

خيانة ولا استسلامًا، بل هي شكل من أشكال المقاومة الهجينة؛ المقاومة التي تعترف مسبقًا

بهزيمتها الجزئية، لكنها تُمارس الكتابة رغم ذلك، لأن الكتابة هي الملاذ الوحيد المتبقي

لهوية تحاول أن تثبت وجودها في مواجهة الصمت الكبير.

وفي ضوء هذه النتائج، يمكن القول إن رواية مالك حداد تُمثل علامة فارقة في تاريخ الأدب

الجزائري، لا لأنها تروي حكاية شخص واحد، بل لأنها تُجسد مأساة جيل كامل من المثقفين

الذين وُجدوا على الحافة بين حضارتين، وخاضوا معاركهم الأكثر إيلاّمًا لا بالبنادق، بل

بالكلمات والصمت والذاكرة والمكان

تفتح هذه الدراسة آفاقًا بحثية متعددة يُمكن استثمارها في أعمال مستقبلية، أبرزها:

دراسة مقارنة بين روايات مالك حداد وروايات محمد ديب وكاتب ياسين لاستجلاء التمثيلات

المتباينة للهوية في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية. كما يُمكن توسيع الإطار المفاهيمي

باستحضار نظريات ما بعد الاستعمار عند هومي بابا وفرانز فانون لإعادة قراءة الرواية

قراءة أكثر عمقًا. وثمة كذلك مجال خصب لدراسة ظاهرة التعدد اللغوي في الأدب الجزائري

الحديث المكتوب باللغة العربية بعد الاستقلال، ومقارنتها بتجربة الكتابة الفرانكفونية.

وخلاصة القول، إن إشكالية اللغة والهوية في الأدب الجزائري لم تُستنفد بعد، وإن رواية

مالك حداد لا تزال تنتظر قراءات نقدية جديدة تُضيء جوانبها المعتمدة وتُنصف مبدعًا جعل

من وجعه الشخصي شهادة إنسانية باقية.

---

# الملحق

## التعريف بالكاتب:

مالك حداد (1927-1987) روائي وشاعر جزائري من مدينة قسنطينة، يُعد من أبرز أدباء الجزائر المعاصرين. عالج في أعماله الأدبية قضايا الهوية والمنفى والحنين إلى الوطن، ومن أشهر أعماله رواية «ليس في رصيف الأزهار من يجيب» كتب عدة أعمال أدبية باللغة الفرنسية، من أهمها:

- رواية الانطباع الأخير (1958)
- رواية سأهبك غزالة (1959)
- رواية التلميذ والدرس (1960)
- رواية رصيف الأزهار لا يجيب (1961)
- كتاب الشقاء في خطر (مجموعة شعرية)
- كتاب أنصت وأنا أناديك (ديوان شعري)

## ملخص رواية «ليس في رصيف الأزهار من يجيب» لمالك حداد:

تدور أحداث الرواية حول خالد بن طوبال، وهو كاتب وصحفي جزائري يعيش في باريس خلال فترة الاستعمار الفرنسي وحرب التحرير الجزائرية. يعاني خالد من أزمة نفسية وهوياتية عميقة بسبب ابتعاده عن وطنه الجزائر وكتابته باللغة الفرنسية، لغة المستعمر، مما يجعله يعيش صراعًا دائمًا بين انتمائه الوطني وأداته اللغوية. تتجسد معاناة البطل من خلال علاقاته بالشخصيات المحيطة به، وخاصة زوجته وريدة المناضلة في سبيل استقلال الجزائر، وصديقه الفرنسية مونيك التي تمثل عالمًا مختلفًا عن عالمه الثقافي والوجداني. وبين الوطن والمنفى، وبين العربية والفرنسية، يشعر خالد بالاغتراب والعجز عن التعبير الحقيقي عن مشاعره وهويته. تكشف الرواية أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل هي جزء من الهوية والانتماء. لذلك يجد خالد نفسه عاجزًا عن نقل آلام شعبه وأحلامه الوطنية بلغة لا تنتمي إلى ثقافته الأصلية.

---

ومع تصاعد الأحداث تتعمق أزمة البطل، فيصبح الصمت وسيلته الأساسية للتعبير عن الألم والحيرة.

تعالج الرواية قضايا المنفى والاستعمار والاغتراب والبحث عن الذات، وتصور مأساة المثقف الجزائري الذي يعيش بين ثقافتين ولغتين. وتنتهي الرواية دون تقديم إجابات حاسمة، لتؤكد أن سؤال الهوية يظل مفتوحاً، وأن الإنسان في ظروف الاستعمار والمنفى يبقى في رحلة دائمة للبحث عن ذاته وانتمائه.

---

## قائمة المصادر والمراجع

## قائمة المصادر والمراجع

- 1/ الجوزي، وهيبة. (2010). دور اللغة في تشكيل شخصية الفرد والهوية الوطنية. مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، 7(1)، 177-197.
- 2/ الجوهري، حاتم. (2023). إشكالية الهوية الثقافية للدولة. مجلة الثقافة الجديدة.
- 3/ الجرجاني، عبد القاهر. (1989). دلائل الإعجاز (العمل الأصلي نشر عام 1078). دار الأمان.
- 4/ الحربي، أشواق عبد الله فهد. (2024، 23 أغسطس). اللغة والهوية. تعليم جديد.
- 5/ حوري، بديع الزمان. (2015). مشكلة الهوية بين تيارات الفكر العربي الحديث والمعاصر. مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، 06، 13.
- 6/ الزهراني، عادل خميس. (2018، 10 يوليو). اللغاء من ابن جني إلى سوسير. جريدة المدينة، ص. 1.
- 7/ الكفوي، أبو البقاء. (1998). الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (ع. درويش وم. المصري، محققون). مؤسسة الرسالة.
- 8/ كورت، نور الله، وأبو الهيجاء، ميران أحمد. (2015). اللغة العربية نشأتها ومكانتها في الإسلام وأسباب بقائها. مجلة كلية الإلهيات بجامعة بينغول، (6)، 113-138.
- 9/ كريم، محمد رياض. (1996). المقتضب في لهجات العرب (ط. 1). [د. ن.].
- 10/ مناصرة، عز الدين. (2004). الهويات والتعددية اللغوية: قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن. دار مجدلاوي للطباعة والنشر.
- 11/ المجلس الدولي للغة العربية. (د.ت). اللغة العربية في المحاكم والقضاء. تم الاسترجاع في 14 مايو 2026.
- 12/ مجلة أبحاث جامعة النجاح. (د.ت). The Reality of the Arabic Language in Algeria.
- 13/ مجلة روح. (د.ت). دور اللغة في بناء الحضارات: كيف تسهم اللغة العربية في الحفاظ على التراث الثقافي؟
- 14/ النصور، براءة. (2023، 22 أغسطس). وظائف اللغة. موضوع.

15/ عبد النبي، إشراق سامي. (2018). الهوية والسر في رواية (عرائس الصوف) للكاتبة الكويتية

---

ميس العثمان. مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، 46(3-4).

16/ موضوع. (2021، 18 مايو). تعريف الهوية. /تعريف الهوية.

17/ الجزيرة نت. (2018، 31 يناير). الهوية.. بذرة التعصب الأولى! الهوية-بذرة-التعصب-

الأولى. 18/رواية ليس في رصيف الأزهار من يجيب لمالك حداد.

---

# المُلخَص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن العلاقة بين اللغة والهوية في الرواية الجزائرية الحديثة من خلال رواية «رصيف الأزهار لا يجيب» لمالك حداد. انطلقت الدراسة من إشكالية تتمثل في كيفية تجلي الهوية من خلال اللغة الروائية، ومدى تأثير الاستعمار والمنفى في تشكيل الوعي اللغوي والهوياتي للشخصيات. اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي من خلال تحليل النص الروائي واستخراج المظاهر الدالة على أزمة الهوية وإشكالية اللغة. وتوصلت إلى أن اللغة ليست مجرد أداة للتواصل، بل تمثل مكوناً أساسياً في بناء الهوية الفردية والجماعية، كما أبرزت الرواية معاناة المثقف الجزائري الذي يكتب بلغة المستعمر ويعيش صراعاً بين الانتماء الوطني والانتماء اللغوي. كما كشفت الدراسة أن الصمت يشكل وسيلة تعبير بديلة عندما تعجز اللغة عن نقل المعاناة الإنسانية. وتؤكد الرواية أن الهوية تبقى في حالة تشكل مستمر تحت تأثير الظروف التاريخية والثقافية.

**الكلمات المفتاحية:** اللغة، الهوية، الرواية الجزائرية، مالك حداد، الاستعمار، المنفى.

This study examines the relationship between language and identity in modern Algerian fiction through Malek Haddad's novel *The Flower Quay Does Not Answer*. It investigates how identity is represented through literary language and how colonialism and exile influence identity formation. The study adopts a descriptive and analytical approach based on textual analysis. The findings reveal that language is not merely a means of communication but a fundamental component in shaping both individual and collective identity. The novel highlights the suffering of the Algerian intellectual who writes in the colonizer's language while remaining attached to his national identity. It also demonstrates that silence functions as an alternative mode of expression when language fails to convey profound human suffering.

**Keywords :** language, identity, Algerian novel, Malek Haddad, colonialism, exemple, Haddad, colonialism, exile

---

# الفهرس

شكر

إهداء

قائمة المحتويات

العنوان

المقدمة.....5

الجانب المنهجي

الجانب النظري

الفصل الأول: الإطار النظري المفاهيم اللغة والهوية في الخطاب الروائي ....8

المبحث الأول: اللغة .....11

المطلب الأول: مفهوم اللغة لغة واصطلاحا .....11

المطلب الثاني وظائف اللغة .....13

المبحث الثاني: الهوية.....15

المطلب الأول: مفهوم الهوية (لغة واصطلاحا) .....15

المطلب الثاني: أنواع الهوية .....18

المبحث الثالث: العلاقة بين اللغة والهوية .....22

المطلب الأول: اللغة باعتبارها مكونا أساسيا للهوية.....22

المطلب الثاني: تجليات الهوية من خلال اللغة.....23

المطلب الثالث: اللغة والهوية في الخطاب الروائي.....

لفصل الثاني: تجليات الهوية واللغة في رواية رصيف الأزهار لا يجيب.....29

المبحث الأول: تجليات اللغة من خلال إشكالية التعبير.....31

المطلب الأول: لغة وأشكال التعبير.....33

المطلب الثاني: الصمت والعجز اللغوي.....37

المطلب الثالث: دلالة لغة في تشكيل الهوية.....41

المبحث الثاني: تجليات الهوية في الرواية.....44

المطلب الأول: أزمة الانتماء والاعترا ب.....46

المطلب الثاني: الصورة الذات والآخر .....50

---

|         |                                                 |
|---------|-------------------------------------------------|
| 56..... | المطلب الثالث: المكان والذاكرة وعلاقتها بالهوية |
| 67..... | الخاتمة                                         |
| 69..... | ملحق                                            |
| 72..... | قائمة المصادر والمراجع                          |
| 75..... | الملخص                                          |